أحمد رفيق المهدوي

شاعر الوطنية الانسان المحب

د . عبد القادر أحمـد رمضان

قسم اللغـة العربيـة

أحمد رفيق المهدوي

شاعر الوطنية الانسان المحب

بقلم الدكتور : عبد القادر احمد رمضان

الشاعر « المرحوم » أحمد رفيق أحمد المهدوي شاعر فحل من شعراء لغة الضاد العظام في أدبنا العربي الحديث ، أدب اليقظة والوعي القومي لأمتنا المجيدة المناضلة التي تأبى الضيم وتنافح عن عروبتها وعزة أوطانها مسلحة بقوة إيمانها بدينها وحقها في العزة والسيادة على الوطن العربي الكبير الذي ورثت سيادته عن آبائها العظام الذين حملوا لواء المعرفة والأخوة الانسانية للبشرية جمعاء .

وهو شاعر فذ فياض الملكة الشعرية ، عرك الحياة وبلا أحداثها منذ نعومة اظفاره فما إن تفتحت عيناه على جمال الوطن الحبيب الى نفسه في بقعة من أعز بقاعه وأمنعها في بلدة بالجبل الغربي حيث كان أبوه يشغل رتبة قائمقام تلك البلدة وهي درجة رفيعة في ذلك العهد التركي المتداعي المؤذن بالزوال . حتى أفاق من حلم صباه الناعم الوردي الجميل على دوي قذائف البحرية الايطالية الغاشمة تدك حواضر وطنه الغالية مثل طرابلس وبنغازي ودرنة ومصراتة ممهدة بها لإنزال جنودها لاحتلال ليبيا ولتجعل منها جزءاً حيويا من امبراطورية مترامية تشمل ايطاليا وليبيا والحبشة وجزءا كبيرا من الصومال في فترة تكوين الامبراطوريات الاستعمارية الظالمة بعد عصر تكوين القوميات الأوروبية عقب عصر الانقلاب الصناعي الأوروبي الذي خلف نظام الاقطاع في أوروبا في حين كانت الأوطان العربية تعاني من التخلف بسبب وقوعها تحت الحكم التركي المتداعي وحيث كان

الغرب الناهض يلقب الدولة التركية بالرجل المريض ويفتعل أوهى الأسباب للانقضاض على أطرافها المترامية يقتطعها جزءا إثر جزء حيث قد ساعد على استقلال ما سيطرت عليه في أوروبا مثل شبه جزيرة البلقان واليونان وأخذ يغزوها في عقر دارها في ولاياتها العربية المسلحة في شمال افريقية والشرق الأوسط الى أن هزمها نهائيا في الحرب العالمية الأولى وتطلع الى اقتحام عرينها في الأناضول لولا نفر أباة من ابنائها ذادوه ببسالة فانقلب خاسئا مدحورا .

ولد أحمد رفيق المهدوي في بلدة « فساطو » احدى قرى الجبل الغربي جبل نفوسة سنة ١٨٩٨م حيث كان والده قائمقام تلك البلدة كما كان جده أحمد المهدوي عميد بلدية بنغازي فهو من أسرة ماجدة أورثته الأنفة والحمية التي تدفعه الى أن يصدع بما يراه حقا وتحول بينه وبين المساومة في حقوق وطنه وتحمله على رفض أنصاف الحلول وتحبب اليه ركوب الصعاب ان خيربينها وبين قبول ما يمس كرامته ويزري بسيادة وطنه .

فما إن أتم السنة السادسة من تعليمه حتى كان الاحتلال الايطالي البغيض فيهاجر الى مصر وهو في الثالثة عشرة من عمره حيث أكمل فيها تعليمه الابتدائي والثانوي حيث رحلت أسرته الى الاسكندرية ولما يمض عام على الغزو الايطالي لليبيا الذي وقع في صيف عام ١٩١١م « أحد عشر وتسعمائة وألف للميلاد » .

وفي رحاب عروس البحر وعلى شواطىء البحر الابيض المتوسط الذي شهد الامجاد البحرية العربية أمجاد عبد الله بن أبي السرح وطارق بن زياد ويوسف القرمانلي استأنف أحمد رفيق تعليمه الذي ابتدأه في

الوطن في مدرسة تركية فالتحق بالمدارس المصرية وجلس الى الحلقات العلمية التي تعقد في المساجد وكان يحرص على دراسة ما تخرجه المطبعة من كتب الأدب فقد ذكر رحمه الله أنه قرأ مع المرحوم بيرم التونسي رسالة الغفران وقد انتحيا ركنا من جامع الأباصيري .

أمضى رفيق في الاسكندرية ثماني سنوات دارسا قارئا متأملا انتقل خلالها من الصبا الى مرحلة الشباب وتكونت فيها اتجاهاته الأدبية وتفتح فيها وجدانه وشهد فيها المجتمع المصري إبان الحرب العالمية الأولى وما تفرضه عليه من تبعات وما يعانيه من عنت المستعمر الانجليزي وغطرسته وعرف الوطنية في الثورة المصرية وهو يستحضر في ذهنه احداث وطنه الجسام وتضحيات أبنائه الجسام وبطولات مجاهديه في دفع غزاة يفوقونهم عددا وعتادا سلاحهم الايمان والحمية العربية التي تأبى أن يهان الوطن وتستباح مقدساته .

فكان كل ذلك مما أيقظ الشاعرية في نفس رفيق وكانت أول قصيدة له في رثاء محمد فريد رمز الوطنية آنذاك[1] .

عاد رفيق الى الوطن في اكتوبر سنة ١٩٢٠ عشرين وتسعمائة وألف للميلاد بعد اتفاق الرجمة وكان وضع ليبيا أشبه بالاستقرار بعد الذي عانته البلاد من سني الحرب والمجاعة والأوبئة .

فقد وجد في البلاد قانونا أساسيا وبرلمانا وسياسة مبنية على التفاهم كما وجد على رأس بلدية بنغازي أحد أصهاره وهو الأخ محمد المحيشي فعينه في إحدى وظائفها . ولكن هذا الهدوء كان يخفي وراءه غليانا شديدا وثورة توشك أن تندلع :

---

(١) مذكرة لصاحب البحث في الادب الحديث في المغرب العربي قررت على السنة الرابعة بكلية اللغة العربية والدراسات الاسلامية ١٩٧٣/١٩٧٦ م

أرى تحت الرماد وميض نار توشك أن يكون لها ضرام

ولم تمنعه الوظيفة أو صلته برئيس البلدية صهره من نقد الأوضاع في قطعتين احداهما في نقد الحزب الدستوري العربي والأخرى في نقد صحيفة برقة .

فقد كانت فكرة الطليان كغيرهم من الاستعماريين تمزيق الوحدة الوطنية بين أبناء الوطن الذي يبتلى بهم سيرا مع المثل الاستعماري القديم « فرق تسد » . كانت فكرتهم أن يثير هذا الحزب بمنشوراته العرب على الترك وأن يشيع اعضاؤه في الناس أن الطليان قد جاءوا ليحرروا العرب من الاتراك وهو بهذا يكون أداة استعمارية . فقال رفيق مهاجما سياسة هذا الحزب التي لا تخدم الوطن والقطعة وإن كانت من شعر صباه حيث لا نضج لملكة القريض ولا اكتمال للتجارب الانسانية والادبية إلا أنها تدل على نزعة فنية صادقة ووطنية صادقة تسمو بمصلحة الوطن فوق كل اعتبار وهي :

الحزب الدستوري العربي ينبوع الباطل والكذب
قد لفق أحقر شرذمة لم ينقصهم إلا الذنب
قالوا إنا قوم جئنا لندافع عن مجد العرب
كذب كذب كذب متأت من سوء الأدب
ما أنتم للطليان سوى بقر للخدمة لا الحلب
وكلاب ليس لها أمل إلا في الراتب والرتب[1]

(١) مذكرة الادب الحديث في المغرب العربي ص ١ . لم تثبت هذه القطعة في ديوان الشاعر بأجزائه الثلاثة مع ورودها في بعض الكتب الادبية التي ارخت نضاله ومع شيوعها على السنة الجماهير أثناء الجهاد الوطني .

فالشاعر يهاجم أعضاء الحزب مهاجمة عنيفة إذ يصفهم بالكذب وحقارة الشأن والبغاء عندما يحاولون خداع الشعب عن نواياهم الخبيثة ويكذبهم ويجردهم من اخلاق المواطن الصالح ويدفعهم بأنهم ليسوا إلا أدوات حقيرة للمستعمرة لا ترتقي الى مستوى الحيوانات التي تقدر لدرها وانما هم بقر خدمة تشقى في الحرث بل أقل شأناً من بقر الخدمة انهم كلاب يشقى بها الوطن نظير فتاة مؤائد المستعمر • وليس لهم من شرف المواطنين البسلاء نصيب •

أما جريدة برقة فهي تمثل أداة أخرى من أدوات الاستعمار تدعو الى المصانعة والتزلف للمستعمر وترى الذكاء في مسالمته والنزول عند مشيئته فهاجمها رفيق برغم الصلة التي تربطه بمديرها بقصيدة ذاعت بين أبناء الشعب رغم وسائل القمع والكبت آنذاك فمن تلك القصيدة قوله : ــ

ألم يبلغك ما قال البريد ؟ هراء لا يضر ولا يفيد
مسيلمة الجرائد ما تنبا وزاد فدينه كفر جديد
تملق كي ينال رضاء قوم فما رضي الإله ولا العبيد
فما ربحت تجارته فتيلا ولا هو في مساعيه حميد

ومنها :

متى تأتي لنا البشرى بأن قد توفي قبل نشأته الوليد
لعمرك جاهل من يشتريه حرام ذلك الثمن الزهيد

أرأيت أسلوب رفيق الساخر بالبريد وهو اسم جريدة برقة تلك التي تحاول أن تنفذ الى عقول قرائها وتحبب اليهم مهادنة المستعمر الدخيل وتدعوهم الى القاء السلاح وتركه ينعم في خيرات الوطن ويرضي حقده بافناء أهله •

فآراء تلك الجريدة الناشئة تحت حراب المستعمر المشرعة هراء

لا تستطيع التغرير بمواطن وهي في الجرائد كمسيلمة الكذاب لا تكتب إلا باطلا ولا يصدر عنها إلا كفر بحقوق الوطن نكران لآلائه على ابنائه تفعل ذلك رياء ومسالأة للمستعر الدخيل فتغضب عليها الله والناس وهي من ثم خاسرة في سعيها ضالة عن الرشاد خسيسة في نظر الأحرار ثم تكون سخرية الشاعر بها عندما يتشوق لموتها قبل أن يشتد لها ساعد وهو يعمل من جانبه على الاسراع بالفناء لها عندما ينصح القراء بعد شرائها ويرمي مشتريها بالجهل وسفه التبذير بدفع ثمنها لأن ما فيها من آراء لا يعدل ثمنها الزهيد قيمة .

ومهما يكن الأمر فان هذه المجاهرة بالعداوة للمستعمر ولدعاة مصانعته قد صيرت حياة الشاعر محفوفة بالخطر فلم يكن له من الهجرة يد حيث أجبر على مغادرة الوطن الى تركيا عام ١٩٤٢ م[1] وكان أبوه وأخوه قد سبقاه اليها وأقاما في مدينة صغيرة قرب سوريا تسمى جيحان فأقام الشاعر معهما يشاركهما تجارة صغيرة اتخذاها معاشا لهما . وكان يقرأ ما يقع تحت يده من كتب العربية مثل كتاب الأغاني وكانت جذوة الشعر ما تزال تومض في صدره .

أمضى رفيق في مهجره بتركيا تسع سنين اتخذت فيها وطنيته سمة الحنين الى وطنه ورفاق صباه فكان يبدع آيات القريض مصورا بها مدى ما يجد من شوق وما يعتلج في صدره من شقاء وشعور بالحرمان وبالهوان لابتعاده عن ربوع الوطن الحبيب وما يعتريه من حب صادق ورغبة أكيدة في الرجوع وما يساوره من قلق وعدم اندماج في بيئته الجديدة لأن فؤاده رهين الوطن والاصدقاء لا يدع مناسبة لقول القريض إلا ويسجل فيها تسجيلا بديعا صادقا معاناته الاصيلة العاتية فهو يذكر وطنه على الحول من

---

(١) الثقافة العربية العدد الثاني من السنة الخامسة صفر/ربيع الاول ١٣٩٨ ص ١١

اجباره على تركه واضعا شعوره الذي لم تلم به مسرة تخفف مما يعانيه ويجسد قهر الظروف التي أرغمته على الهجرة لما عاناه من صغار وارهاب في وطنه فأمل أن يجد في هجرته العزة والحرية فكان الأمر على عكس ما رجا فكانت هجرة خاسرة أوحت اليه بشؤم الغراب المقلد الذي أضاع أصالة صفاته بجهل وعدم اتقان ما أضاع أصالته لتقليده وذكر أن الدموع المخففة من وقع الأحزان لا تزيد حرقاته إلا ضراماً كما يفعل الماء بالجير الحي الذي يزيد الجير مع برودته تفاعلا واشتعالا .

يقول الشاعر من قصيدة ضاع أكثرها كما ذكر الشاعر نفسه :

(١) تكامل حول منذ فارقت أوطاني ... فما نلت في اثنائه غير احزان
نوى قذف زمت ركابي ولم تزل ... تغلغل بي حتى أتت أرض جيحان
فألقت عصا التسيار في شر بقعة ... تألب في أرجائها شر سكان
تركت بلادي إذ شعرت بأنني ... سألقى صغارا منه يأنف وجداني
وسرت لأرض غير أرضي مؤملا ... لعز فكانا في المصيبة سيان
فيا خيبة المسعى الى غير موئل ... من النجع مشفوع بأعظم خسران
فقدت بلادي وهي عندي عزيزة ... ولم ألق ما أملت في بلد ثان
كأني غراب البين ضيع مشية ... ولم يكتسب مشي الحمام بإتقان
حنينا وشوقا يا بلادي فانني ... وان طال عنك البعد لست بخوان
فما كان بعدي عنك إلا ترفعا ... عن الضيم لا بغضا ولا قصد هجران
وإني لأكمي في الجوانح لوعة ... لحبك يوريها على البعد تحنان
إذا خفف الدمع الأسى فمدامعي ... لها وقدة زادت أساي وأشجاني
كما كان عذب الماء في الجير منشئا ... على خصر فيه حرارة نيران

(١) الديوان الفترة الثالثة ص ٧ ـ ٨

عاد رفيق لرحاب الوطن الذي يحبه ولا يحس بالسعادة والطمأنينة إلا في رحابه سنة ١٩٣٣م عاد اليه مرة أخرى من مهجره بتركيا ولكن الايطاليين الغزاة ضاقوا بمقامه فأجبروه على مفارقته لتركيا مرة أخرى ثم عاد اليه مرة ثالثة في عام ١٩٤٦م وشارك مع غيره من المثقفين في الحركة الوطنية الداعية الى الاستقلال التام والوحدة الوطنية والتخلص من عهد الادارات ودخل السجن مع مجموعة منهم وقد سجل ذلك في قصيدة منها قوله :

(١) إن ندخل السجن ما في السجن من باس فيه الكرام وفيه أفضل الناس

كما قال يصور ذلك في قصيدة أخرى منها قوله :

إن تدخل السجن ما في السجن من عار نعم المقام لأبطال وأحرار
السجن أهون شيء عند محتقر للموت في شرف في عز جبار
والظاهر النفس من وخز الضمير وإن لم يدخل السجن في سجن وفي نار
يد الخيانة حط الشرع قيمتها حتى لقد «قطعت في ربع دينار»
فمن صفت روحه مما يدنسها فليس في موته في السجن من عار
والصبر أفضل اخلاق الرجال ولا يكون إلا لقلب غير خوار (٢)

ولقد كان الشاعر أحد أعضاء جمعية عمر المختار البارزين وقصائده الوطنية التي يزخر بها ديوانه تصور بجلاء رأيه في القضايا الوطنية ودعوته الصادقة وصوته الجهوري المدوي بنداء الحرية التامة وعدم قبول أنصاف

---

(١) الثقافة العربية العدد الثاني السنة الخامسة ص ١١
(٢) الديوان الفترتان الرابعة والاخيرة ص ٢١ ٥ـ ٢١٦

الحلول وحثه على وحدة الوطن والتنديد بدعاة الانفصال والعصبيات البغيضة .

ولقد كرم رفيق بعد عودته الاخيرة لربوع الوطن وانتخب أحد أعضاء مجلس الشيوخ وقد أدركته الوفاة في اليونان عام ١٩٦١ م واحد وستين وتسعمائة وألف للميلاد عن ثلاث وستين سنة وقد أحضر جثمانه من هناك ودفن في أرض الوطن الذي أحبه وأخلص في الدفاع عنه والحنين إليه[٣] .

(٣) الثقافة العربية ص ١١

الوطنية في شعر أحمد رفيق المهدوي

لعل أبرز الأغراض التي قال فيها الشاعر روائع قريضه هي الوطنية : وإذا كانت الوطنية من أبرز سمات شعرائنا في العصر الحديث لأن الشاعر ابن وطنه وثمرة طبيعية للظروف التي يحياها هذا الوطن وإذا كان وطننا العربي الكبير قد تعرض لظروف قاسية نتيجة لتخلفه بسبب وقوعه تحت الحكم التركي الذي كان سببا في ضعفه وطمع الغرب فيه منذ أن استيقظ الغرب على حملة نابليون بونابرت . فليس غريبا أن يتفوق أحمد رفيق في هذا الغرض الرئيسي من أغراض الشعر في العصر الحديث فقد أفاق على دوي قنابل العدو تدك مدن وطنه العزيز الآمن سنة ١٩١١م احدى عشرة وتسعمائة وألف للميلاد وأجبر على الرحيل عن مراتع صباه ومواطن ذكريات صباه وأحلامه الوردية قبل أن يكتمل عام على بدء الغزو البغيض ويعود الشاعر لربوع الوطن الحبيب بعد أن اشتد ساعده وأصبح قادرا على النضال والمنافحة بالكلمة الثائرة والفكرة الهادية والجنان الثابت فيجبره المستعمر الغاشم على مغادرة الوطن للمرة الثانية والثالثة ثم يعود ليدخل السجن في عهد الادارات ولكنه يستمر قائما برسالته الشعر الجليلة المنددة بكل من تحدثه نفسه بالتنكب عن مصلحة الوطن العليا أو التهاون في السعي المتواصل الدؤوب اليها الى أن يشهد بأم عينه ثمرات جهاده وجهاد المخلصين من ابناء الوطن الحبيب وقد أينعت نصرا وهزيمة للاعداء فيشيع ايطاليا الذليلة المنهزمة بقصيدته الرائية الرائعة الزاخرة بالسخرية يبعث بها من مهجره بتركيا إذ يقول منها :

قد ائتلف الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

الى بئس المقر وحيث ألقت برحل حول ساحته الدمار

مضت مصحوبة بدعاء (شر) يكرره شمات واحتقار

كما شهده وقد تحققت ارادة الوطن في وحدة وطنية ضمت ولاياته برقة وطرابلس وفزان وما زال المخلصون من أبنائه يعملون على تحرير هذه الارادة مما تبقى من آثار الاستعمار البغيض ماثلة فيما جثم على بعض ربوعه من قواعد وجاليات ايطالية مستغلة حتى تحققت أحلامه في ثورته العملاقة الرائدة التي تفجرت صباح الفاتح الاغر من سبتمبر عام ١٩٦٩ م فحطم الشعب قيوده وانطلق يحقق المعجزات ويقهر التخلف وينادي بحرية الشعوب الثائرة لتحقيق حرياتها وحقق تجربة عصر الجماهيرية وتجربتها الرائدة في مجال الحرية والسيادة الوطنية فقامت سلطة الشعب ووضعت السلطة والثروة والسلاح بيده وحررت طاقاته للبناء .

ولقد تجلت وطنية رفيق في كثير من البواعث التي دعته لقول الشعر في أثناء اقامته بالوطن أو إبّان فراقه له فقد خلد دلائل الوطنية في تأكيد حبه للوطن وندمه على فراقه واشتياقه للعودة اليه وحنينه لذكريات الصداقة في رحابه ونضاله اعداءه والموالين لهم وتنديده بالمنحرفين ودعوته للتمسك بوحدة الوطن وحثه على الاخذ بأسباب الاصلاح والدعوة لرعاية الايتام ممن جنى عليهم المستعمر بقتل آبائهم وذويهم .

فها هو الشاعر يحكم على نفسه بالخطأ وعدم اصابه كبد الحق وسداد الرأي عندما خرج من الوطن ويتعجب كيف سمح لنفسه بفراق وطن فيه كل ما يحب في الوجود فيه الحبيب ومسقط رأسه وفيه الاهل والاصدقاء الاوفياء ويلح الشاعر في تخطئه نفسه والتعجب من أن يجانبه

التوفيق في الاجتهاد اذ ظن أنه يمكنه ان يكون أكثر حرية وأقدر على خدمة قضية وطنه من خارجه وأنه بهذا يخفف من شدة حنينه اليه فلم يكن له ما أمل .

كما يؤكد ان الاغتراب مدعاة للحزن والعزلة النفسية وانحطاط المنزلة الاجتماعية في ديار الغربة فلا يملك المغترب والحال تلك سوى تذراف الدموع ومعاناة الحسرات والتقلب في الفراش عندما ينام الخليون الناعمون بأوطانهم ويتساءل الشاعر ان بقي أهلا لان يحفظ الحبيب عهده والشاعر هو الذي اختار النوى وبعد المزار خصوصا وللحبيب من أبناء الوطن المولعين به من شاعره عوض وأي عوض ويبدي الشاعر ويعيد قفل هذا الموشح الرائع الذي هو ذوب العاطفة الصادقة وفيض تجربة قوية أصيلة منحت الشاعر عفوية محببة للنفوس ومست من وجدان متلقيها وترا مرنانا هتوفا فاعدت عواطفه فلم يكن له بد من مشاركة الشاعر صادق عواطفه وهذه سمة الاصالة في الشعر يقول أحمد رفيق من قصيدتي « وطني » :

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

وطنا فيه أناسي
وبه مسقط رأسي
لست ما عشت بناسي

لذة العيش الخصيب
بين أهل وقريب
وصديق وحبيب

---

(١) الديوان ح ١/١٩ ـ ٢١

لـم أكـن يـوم خروجي مـن بـلادي بمصيـب
عجبـا لـي ولتـركي وطنـا فيـه حبيبـي

عجبا لي يا بـلادي
كيف ضيعت رشادي
لم أوفق في اجتهـادي
حين فارقت حماك
وتوطنت سـواك
بان لي قـدر الغريب

لـم أكـن يـوم خروجي مـن بـلادي بمصيـب
عجبـا لـي ولتـركي وطنـا فيـه حبيبـي

ان مـن عاش غريبا
عاش لا شـك كئيبـا
واذا كـان أديبـا
عاش مجهولا مضاعا
ينفـق العمر التياعـا
بـين حـزن ونحيب

لـم أكـن يـوم خروجي مـن بـلادي بمصيـب
عجبـا لـي ولتـركي وطنـا فيـه حبيبـي

لـم تزدني ذكرياتي
غـير سـح العبرات
يا لهـول الحسـرات
حـين آوي لفراشي
تلهب الاشواق جأشي
كفراش في لهيـب

لـم أكـن يـوم خروجي مـن بـلادي بمصيـب
عجبـا لـي ولتـركي وطنـا فيـه حبيبـي
أترى يـذكر ودي
أم سلا حبي لبعـدي
ورأى في الناس بعـدي

مـن له مثـل ولوعي
في هـواه وخضوعي
ووفـائي لحبيبي

والشاعر يصور نفسه يوم الرحيل تصويرا صادقـا زاخرا ببـواعث الاسى والحزن العميق الذي يملأ على الشاعر جوانحه فينهار تجلده وتتحدر دموعه ويبدع في تصوير تضارب عواطفه وشدة الموقف على نفسه المتعلقة بالوطن فتنثال عليه الصور الفنية المبتكرة عندما يصير مفارقة الوطن ضربا شديدا من نزع الروح ويؤكد ان الهجرة أشد وقعا من معاناة الموت وأنـه قد وزع قلبه بين احبائه المقيمين في الوطن وأنه قدره الذي قضى على أبي البشر بفراق جنته حتى تتضاعف مصائبه بمغادرة الوطن واخوانه الكـرام معا أولئك الذين قد احتفوا به وعبروا عن صادق الود مما أعجزه عـن اداء شكرهم على لسنه وفصاحته فهو يقول من قصيدة عنوانها « فراق » :

(١) سكنته يـوم الرحيل فهاجا شوق أثـار الـدمع الثجاجـا
حاولت اظهـار التجلـد فانثنى عزمي وراح تجلـدي ادراجـا
عالجت من ألم الفـراق وهولـه مالا يفيـد الصبر فيـه علاجـا
فعلمت كيف يكون نزع الروح في حال تضارب عنـدها الاوداجـا
ان الفـراق بـلا لقاء يرتجـى مـوت يكرره الحنـين هياجـا

(١) الديوان ج١/٢٢

الى أن يقـول :

يا مـن يعـز فراقهـم والله لـو ... خيرت ما اخترت النوى منهاجـا
لكنـه قـدر قضى مـن قبلنـا ... لابي البريـة آدم الإخراجا
وقضى عليّ بـه وزاد فراقكـم ... ليكون وقـع مصائبي أزواجـا

والشاعر في قصيدته هجرة ووداع يعلل أسباب هجرته ويردها الـى أمور جماعها عزة النفس والاخلاص للوطن وعـدم القـدرة على خيانتـه بمجاملة اعداء الوطن والدخول فيما دخل فيه من لا خلاق لهم ممن باعوا حق الوطن مقابـل منصب زائف أو عرض زائل أو قبـول للضيم وتـرك النضال غير المتكافىء في سبيل الوطن والشاعر مع اقتناعه بأن ترك الوطـن تحت ضغط العدو الغاشم مقبول يرى أنه قـد جانب الصواب وأتى عظيما من الامر وكأنه كان يرى أن يبقى في رحاب الوطن يصارع حراب الاعـداء بصدر غير دارع ليلقى المنون على ثراه ويعانقه عندما تفيض روحه شهيدة هواه كأنه يرى أن اذعانه لإرادة الدخيل الغاشـم ورحيله عـن الوطـن ضربا من التهاون في حق الوطن وأخذا برخصة وتقية يأباها الاحرار ولهذا فقد أقضت مضجعه وأوقعته في حيرة لا تنكشف عمايتها واسلمت الشاعر لتأنيب ضمير حاد جاشت له عبراته حتى شرق بها وأوشكت أن تخنقه .

يقول أحمد رفيق :

(١) رحيلي عنك عز عليّ جـدا ... وداعـا أيهـا الـوطن المفـدى
وداع مفـارق بالرغـم شـاءت ... لـه الاقدار نيـل العيش كـدا
سأرحـل عنـك يا وطني واني ... لاعلـم أننـي قـد جئـت إدا

---

(١) الديوان ج ١/٢٣ ، ٢٤

الى أن يقـول :

طلبت العـز في وطنـي مقيمـا ... فأوسعني زمـان السـوء ردا
سأركب عزمة حـذاء أمضـي ... أقد بهـا حجـاب الغيب قـدا
ويا وطنـي هجرتـك لا لبغض ... ولا أنـي منحـت سـواك ودا
فلا والله مـا هاجـرت حتـى ... جهدت ولـم أجد من ذاك بـدا
يقول لي الصديـق أرح ركابـا ... فانـك واجـد إربـا وجـدا
هـداك الله كيف تطيـب نفسي ... وفي عنقـي أرى للاسـر قـدا

الـى قـوله :

ويا وطنـي نبـا بي عنـك حب ... وأحيانـا يكـون الحب صـدا
وقـد يأتي الغيور بمـا يـراه ... خلي من جـوى للعقـل ضـدا
فلسـت ألام في تركـي حبيبـا ... أرى في حبـه الاعـداء نـدا
ويا وطنـي وداعا مـن محـب ... تحـير رأيـه أخـذا وردا
وداعـا لا أظـن لـه لقـاء ... فـوا أسفا اذا ما البـين جـدا
أناديـه وقـد زمـت ركـابي ... وهد البين ركـن الصبر هـدا
وجاشت تخنـق العبرات صوتي ... وداعـا أيهـا الـوطن المفـدى

حتى اذا ما نزل الشاعر ببلدة جيحان من تركيا وقبل أن يطول مقامه بها ساوره الحنين العـاتي واستبد به الشـوق الممض وأخذ يردد هتـاف الذكريات العزيزة على فؤاده وشعر أن مجرد تأخـر رسائل اخوانه عـن مواعيدها ضرب من الجفاء فما كان لمثلهم في وفائهـم ووداهم أن يسلموه لتباريح الفرقة والاغتراب تفترسه وتضنيه وتنحله وكيف يقوى على نـوى فرقت بين جسده وفؤاده الذي لم يقر الشاعر على هجرته أو قبوله بها فلزم

ربوع الوطن ومواطن ذكريات الاحبة به أو اتخذ هجرة مضادة فغادر مقره بين جوانح الشاعر ليطير على جناح الذكريات حيث يشارك أخوة النضال نضالهم في رحاب الوطن كما يشاطرهم اويقات أنسهم التي طالما شاطرهم الشاعر إياها عندما كان في غفلة من عين دهره .

ويلتفت الشاعر مبررا أسباب هجرة أدرك الشاعر فداحة خسرانها منذ البداية فلا يجد مبررا مقبولا إلا أن يكون عقابا من الدهر لعدم شكران نعيم الصبا الذي لم يف الشاعر بحقوق شكره ولقد كان على حظ وافر من صدق العاطفة التي تعيد الى ذهن قارىء القصيدة التياع شاعر الحب الاندلسي الكبير ابن زيدون في نونيته الرائعة التي تشوق فيها الى أيام وصال ولادة بنت المستكفي الاميرة العربية الشاعرة والتي تركت أصداء قوية في الادب العربي في هذا الغرض الانساني من أغراض الشعر مما أغرى أمير الشعراء بمعارضتها عندما بعث من منفاه بالاندلس بنونيته متشوقا الى أرض الكنانة .

ويمتد نفس الشاعر في التحسر على ما كان يجده في رحاب الوطن من لذائذ العيش ومتع الحياة اليومية والفكرية بصحبة الاصدقاء الاوفياء الذين شاركوا الشاعر صفو الحياة وأريحية الشباب فحرمهم كما حرم نعمة الكرامة التي لا يقدرها قدرها إلا من ابتلى بفقدها في مطارح الغربة ويلح على فكرة أن اغترابه ضرب من عقابه على افراطه في شرب صفو الحياة إبان الشباب دون شكران .

كما يصور حاله تصويرا صادقا كما أشار لتلك الحال الشاعر العربي القديم :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل مضجع

فهو مؤرق الليل يجفوه الكرى ان رقد الخليون وكل بارق بالافق الغربي يشده لوطنه واخوانه فلا يجد مسعفا غير الدموع وهو يبدي عن ثقة مطلقة في الله جل شأنه أن ينهي غربته وأن يجمع بينه وبين مواطنيه على بعد الشقة بين برقة وجيحان الى غير هذه المعاني الفريدة بما زخرت به من وداد محض وعواطف قوية صادقة فمما قاله هذه الابيات من قصيدة حنين غريب لاوطانه :

(١) يامن على البعد نهواه ويهوانا ... لشد ماشفنا شوق فأضنانا
ذكرى عهود الهوى باتت تساورنا ... يا من يبلغ للاحباب شكوانا
إنا بحكم الهوى صرنا ولاعجب ... نزيد ذكرا لمن يزداد نسيانا
ما انصفتنا الليالي في نوى تركت ... جسما هنا وهناك القلب ولهانا
أما الشباب وما كان الشباب لنا ... إلا على رغم أنف الدهر طغيانا
كان الجنون وما أحلى الجنون به ... ما لذة العيش إلا فيه اذ كانا
وما عرفنا له في حال نشوتنا ... قدرا وكم جحدا الكفران احسانا
يا حسرة ما تمتعنا برونقه ... إذ كان كالزهر رفافا وريانا
كأنه نعمة من بعد ما ذهبت ... ذقنا لها حسرة حرى وفقدانا
ورب اخوان صدق كان يجمعنا ... بهم إخاء صفا سرا واعلانا
كانت مودتهم قربى ورؤيتهم ... تجلو عن القلب من دنياه مارانا
ما سرنا بعد ما ولت شبيبتنا ... إلا صداقة من بالصدق صافانا
حتى خرجنا على الاوطان من بطر ... بنا جزانا به الاحباب هجرانا
إنا على الهجر ما ننفك نذكرهم ... فهل على بالهم يجرون ذكرانا
ما خيم الليل إلا بات يقلقنا ... شوق إذا رقد السمار ناجانا

---

(١) الديوان ج١/ ص ٢٥ ـ ٢٦

نحن شوقا الى أوطاننا فاذا تبسم البارق الغربي أبكانا
ومن سوانا جدير بالبكاء على ذكرى الفويهات والبركا وجليانا
معاهد حبها لو لم يكن شغفا بها لها من جمال كان إيمانا
لا عز إلا لشاو في مواطنه إن الغريب مهان أينما كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان برقة من سكان جيحانا

أصدقاء الشاعر كثر وجلهم ممن يعتز الشاعر بصداقتهم فهم على شاكلته أدبا ووطنية وانسانية ووفاء بالعهود وحفظا للاخوة ورعاية لمن نأت بهم الدار وكان من أجلهم منزلة لدى شاعرنا صديقه الشيخ موسى بن أحمد البرعصي من رجالات بنغازي وأحد المحامين الشرعيين بها كان أديبا شاعرا فكها أريبا ولهذا فقد أرسل الشاعر اليه قصيدة عرفت بالموسوعة ذاعت لقيمتها الادبية ولتصويرها البارع للواعج ونبو دار هجرته به ولما اشتملت عليه من تصوير واقعي لحياة العسف الذي مارسته ايطاليا لوطنه العزيز وللحال المتردية التي استبدت بضعاف النفوس ممن وقعوا في براثن الاغراء الاستعماري فنصبهم عيونا على ابناء الوطن المخلصين يرقبون حركاتهم ويجهدون لافتعال المبررات للزج بهم في غيابات السجون مما تعذر مع تلك الحال على الشاعر البقاء في الوطن ولم يجد معها بد من مغادرته .

كما كانت القصيدة شريطا من أشرطة الخيالة يموج بذكريات الشاعر واماكن سمره ونزهاته وصف بها جمال الربيع بالفويهات ورقة الامسيات بالبركة وجمال الغيد الحسان في أزر السباحة وحلل المصيف وما لها من شدة الاغراء الآسر لحيوية الشباب كما وصف جمال غروب الشمس العسجدي على صفحة البحر الزرقاء اللازوردية وحيث تسعد الاذن نغمات ارتداد الامواج الحالمة اثر معانقتها رمال الشاطىء الوادعة كم برع الشاعر في

وصف ليالي السمر بحنان المحيشي وما يدور فيها من سماع وشراب كان به العيش مخضر الاعطاف رقيق الحواشي قبل أن يقلب الدهر للألاف ظهر المجن فيعقب صفوه بمرارة عيش تشق المرائر ختمت تلك المرارة باخراجه طريدا من الوطن فكان بهجرته كالمستجير من الرمضاء بالنار إذ لم يجد في هجرته الا الاهانة وتعقب الحكومة التركية التي اجبرته على التزام الصمت وتحيفته بالوان الحيف والظلم .

ويتعجب الشاعر من مسلكه هذا الذي كلفه العناء وهجرة الوطن ويتساءل عن السبب الحقيقي لشدة ابائه وعدم خضوعه لسلطان حكم إلا لسلطان الله ذى الجبروت الذي بيده مقاليد السماوات والارض المتصرف في تدبيرها كيفما يشاء ؛ أهو راجع الى فوضوية وحب للتمرد على كل نظام وكل سلطان أم أن له ما يبرر سلوكه من ظلم الحكام ويرجح الرأي الثاني كما ذهب اليه شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء عندما يصور جور الحكام بقوله :

ظلموا الرعية واستباحوا حقها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ويصور في واقعية محببة اجتياح موجة الشرور للبشرية جمعاء فغدا ابناؤها ذئابا على اجسادهم ثياب وأن أخذهم باسباب القوة لدفع عادية الاعداء قد عدا تلك الغاية النبيلة الى نزعة حيوانية أثمرت التباغض بين بني آدم ورسم الشاعر ما يراه وسيلة لصلاح البشرية وهو الحب والاخاء الانساني والمساواة بين الناس لانهم بالفطرة أحرار متساوون في قيمتهم الانسانية لاما تردت الحضارة الغربية الطاغية فيه من نظريات التفرقة واستبعاد الشعوب . من تلك القصيدة الفريدة اثبت بعض ابياتها التي سجل فيها الشاعر انطباعاته وعواطفه الموارة الزاخرة وبعض أفكاره في الحياة والاحياء المعاصرين له :

(١) بعد السلام وتقديم احترامي ... أهديك يا سيدي موسى تحياتي

واشتكي مر أشواقي اليك فقد ... أذكاه في خاطري بعد المسافات

فارقتكم وفؤادي ما يفارقكم ... فيدلوه بأسباب وليلات

أهل الوداد وحبي للوداد هما ... اسباب تعذيب قلبي واشتياقاتي

الى أن يقول :

لم ترض عزة نفسي بالمقام على ... ضيم الاعادي وأرباب الجهالات

خرجت من وطني مثل الطريد فما ... ودعت خلا ولا أدركت ثاراتي

أغرى الزمان بنا أعداءنا فسعوا ... لزجنا في مهاو من غيابات

تأثرتني عيون القوم ترصدني ... تحصي خطاي فتحصيها خطيئاتي

وما جنيت سوى إنكار منكرهم ... بمذودي فتغالوا في معاداتي

أعانهم كل نذل من بني وطني ... بما يبلغ عني من وشايات

فررت بالنفس لا من أجل عيشتها ... لكن مخافة الحاق الاهانات

حتى استجرت ولكن كنت من نكدي ... كالمستجير بعمرو في الملمات

ما جئت مملكة إلا تملكني ... خوف وأدركني حيف الحكومات

خلقت حرا فما فوق البسيطة من ... أعنو له غير جبار السماوات

ومنها ايضا قوله :

توارث الناس فعل الشر فانعكست ... آراؤهم في القضايا والقياسات

---

(١) الديوان الفترة الثانية ص ١ ـ ٦

ومنهـا :

لا طب عندي لداء الاجتماع سوى ... حب يمحص أسباب العداوات
الناس كالناس والدنيا معاشرة ... بالعرف لا أمر خدام وسادات

وشوق الشاعر لوطنه ونزوعه اليه تيار عنيف جارف يعصف بتجلد الشاعر ويؤرقه ولا تزيده أيام الهجرة الا تعلقا بالوطن فيرسل القريض ذوب نفس أضناها البعد ترسل الزفرات الحرى والانين الصادغ الذي يمازج شغاف القلوب معللا المرة بعد المرة اسباب الهجرة التي هي مغرم كلها لانها مفارقه لاسباب العيش الرغد الكريم في رحاب الوطن وينحي الشاعر باللوم الشديد على خرق ايطاليا الممثل في سفه ضباطها الذين نصبتهم حكاما على المواطنين على الرغم من سفههم وعدم خبرتهم ولا يعفي بني وطنه ممن ساروا في ركاب المستعمرين الذين عبر عنهم الشاعر بقوله من قد طلينا أي اعتنق آراء الطليان وسايرهم في رغبتهم في تثبيت حكمهم واستنر الشاعر في القصيدة فنصح المخلصين من مواطنيه في التمسك بعروبتهم ومواصلة التمسك بها وعدم الاندماج في المستعمر لان الظروف تبشر بقرب زوال سلطانه عن ربوع الوطن يقول الشاعر من قصيدة يناشد بها وطنه عام ١٩٣٦ على البعد من جيجان :

(١) يا أيها الوطن المقدس عندنا ... شوقا إليك فكيف حالك بعدنا
كنا بأرضك لا نريد تحولا ... عنها ولا نرضى سواها موطنا
في عيشة لو لم تكن ممزوجة ... بالذل كانت ما ألذ وأحسنا

---

(١) الديوان الفترة الثالثة ٦٩-٧١

عفنا رفاه العيش فيك مع العدا وأبى لنا شمم النفوس وعزنا
وسمنا بنا شوق الى حرية دسنا الى استنشاقها سبب الغنى
يا أيها الوطن العزيز وإن نكن بنا ففيك حبيبنا ومحبنا
أما هواك فلا لزوم لذكره «فالحب مامنع الحديث الالسنا»[1]

الى ان يقول :

جعلوك مسخرة بأيدي صبية لا يبعدون عن الحمير تمدنا
حكموا كما شاءوا فكانوا محنة « والحر ممتحن بأولاد الزنا »
قالوا لقد جئنا نمدن أرضكم أين التمدن والذي قالوا لنا
هدموا من الاخلاق في أوطاننا أضعاف ما شادوه فيها من بنا

ويقول أيضا :

يا من تطوح في البلاد مهاجرا مثلي وخلاها الى من (طلينا)[2]
كونوا على حذر ولا يغرركم وعد فيوم الفوز يوم قددنا
وخذوا النصيحة من محب مشفق صدق الحديث ولا تقولوا من أنا

وهكذا فقد تجلت وطنية الشاعر أحمد رفيق في مظهر آخر مهم وهو تصوير مدى حبه للوطن وتعلقه به وتصويره لما يجري في ارجائه من عسف المستعمر حيث يقتل ابناءه في معارك غير متكافئة لا يجدون إزاءها إلا الثبات حتى الاستشهاد الذي يعتقهم من ذل القهر وسخرية المستعمر المتغطرس وجبروته دفاعا عن حياض الوطن وذودا عن شرف العرض وحماية الابناء فلذات الاكباد من أن تنالها يد المستعمر أو ان ينال منها الفقر والتشرد .

ولقد برع الشاعر في هذا الضرب من شعر الوطنية الذي يدخل في

---

(١) الشطر الثاني اي العجز للمتنبي
(٢) طلين : صار ناصرا للايطاليين

اطار الوصف بمعناه الواسع ففيه تصوير لحالة البسلاء في معركة غير متكافئة سلاحهم فيها الايمان والرغبة في الشهادة دفاعا عن الوطن كما أن فيه تصويرا لالوان الفناء التي تطوي أسر الشهداء من افتراس السباع الضارية إياهم ومن ترديهم في المهاوي السحيقة اثناء هيامهم في الجبال والهضاب فرارا من ذل الاسر كما يصور الشاعر لونا آخر من ألوان كيد الحكام المستعمرين لابناء هذا الوطن والذي لا ينجو منه حتى اليافع من ابنائه الذين أووا للملاجىء تحت ضغط اليتم وتشتت الاولياء إذا بدت على أحدهم سمات النجابة والبطولة وأبدى رغبة في الانتقام من أعداء وطنه قاتلي آبائه وذوي قرباه .

فقصيدة الشاعر التي سماها باسم بطلها النجيب الصغير شهيد الغدر الايطالي الذي صعدت روحه الى بارئها بسبب السم الذي أودعوه طعامه فاضت وهو يهتف بالانتقام منهم وتحرير الوطن من أرجاسهم ليأمن روح ابنائه من عوائلهم .

والقصيدة التي أربت على مئة بيت فكانت من قصائد الشاعر الطوال زاخرة بالعاطفة الصادقة والوطنية الحقة مما منحت الشاعر تجربة فريدة انثالت عليه أفكارها متدفقة موارة فحبته صفو القريض الرائع السبك الجزل في عباراته كما منحته صفاء القريحة فأجاد لا في الوصف الخارجي للمعارك المحتدمة وضروب الموت التي تخطفت الصبية والامهات الناجيات من براثن الاعداء وانما أجاد في رسم الشخصية العربية ممثلة بكل فضائلها في شخص غيث الصغير الذي يأبى عليه شرف محتده إلا التفوق على الاقران في مجال العلم والذكاء وكذلك في مجال التفوق العضلي الذي يكون سببا في رئاسة الاتراب واجبارهم على تقديره واحترامه وهذا الاعتزاز بالنفس الذي يحملها على تصعيد جراحات الدهر والتجلد أمام الاعداء وعدم

البوح بتصاريف الدهر إلا للاولياء الذين يحوزون ثقة هذا الغلام اليافع وعدم اهتمامه بالمال فهو يوزع ما خصه الوالي به من مال تقديرا لمواهبه الفذة وربما اغراء له واستلالا لحقده على المستعمرين الدخلاء يوزعه على إخوانه المشاركين له مرارة التيم وضيم الظروف .

حتى إذا ما استثاره ذلك الوالي الدخيل كوامن ذكريات الصغير ، هيج منه شبلا ضاريا ومجاهدا عنيدا لا يساوم في محاربة خصمه وأعداء وطنه يقاتلهم بالناب والمخلب وما يقع في حوزته من سلاح يجهد ويحرص على توفيره غير آبه بالنتائج ما دام قد أدى واجبه في الانتقام لوطنه وللاخذ بثأر ذويه .

والقصيدة تعتبر صورة صادقة لاقتدار الشاعر على الشعر القصصي كما تمتاز بالوحدة العضوية القائمة على عاطفتي الاعجاب والعطف لمواطنيه من جهة وعلى الازدراء والكراهية للاعداء من جهة اخرى كما انها تنتقل من الوصف الظاهري للاحداث الى تعمق العواطف والانفعالات الداخلية لغيث ثم من البوح والجرأة التي لا تقف عند حد حتى لو عرضت صاحبها للغوائل الى انطواء المستعمر على الحقد والنذالة والجبن والكيد في الخفاء ثم الى التعبير عن أثر السم في داخل الجسد حيث قطع الكبد منه كما قطع وتينه واشعل ضراما في شرايينه فاعقب ذلك تلويه وسقوطه ونزف الدم من فيه يهتف الانتقام الانتقام بينما يبتسم الاعداء في صمت ينم ابتسامهم عن فرحة داخلية خبيثة .

هذه بعض ابيات تلك الفريدة المهدوية :

(١) هو في الملجأ من دون اليتامى ... دائم الصمت وقارا واحتشاما
واضح الجد قليلا ما يرى ... ضاحكا إلا إذا استحيا ابتساما

---

(١) الفترة الثالثة ص ٩ ـ ١٦

نافـذ اللحـظ تـراه ناظـرا نظرة الأجـدل يرتـاد الحمامـا
يتقـي أقرانـه صولتـه حين يحتد إذا اشتدوا خصامـا
هـو في الملجـأ أذكـى طـالب بذهم حفظـا وفهمـا وانتظامـا
فهو رأس القوم رأيـا وهـدى شيخهم عقـلا وإن كان غلامـا
دون تسـع ناحف في صحـة واسـتواء كالردينـي قوامـا

ومنها :

كـان مسـعود أبي في قومـه سيد الاعـراب معروفا همامـا
فارس الخيـل غياث المحتمـي مكرم الضيف كفيـلا للايامـى
بـارك الله لـه في ثـروة تملأ الوادي ثغـاء وبغامـا
ولـه من بنت عـم أخوة خمسة تنتقص البدر التمـامـا

ومنها ما وصف به الهجمة الشرسة القذرة لجيش الطليان على النجوع الآمنـة :

بينمـا الحـي رقـود إذ علت صرخـة تنذر بالشر النياما
ثارت الاطفـال مـن مضجعهـا تملأ الرحب صياحـا وزحاما
لبسوا ثوب الدجى أيدي سبا يخبطون البيـد في البر انهزامـا
تركوا الاثقـال والمال ومـا خف حملا والمطايا والخيامـا
ورأى الابطـال أن لا شـك فيـه فتلقوه كرامـا
قيـدوا أرجلهم صبرا فمـا حلها غـير رصاص يترامـى
حلهـا من ربقة العار ومن عيشة الذل فقد ماتوا كراما
ما تـرى في الحي حيا بعدمـا فرت النسوة يحملن اليتامى

سلكوا في كل شعب هربا يستجيرون من الظلم الظلاما

ومشاهد القصيدة متعددة مترابطة لهذا ننتقي منها بيت القصيد وواسطة العقد الذي صور لنا صلابة الارادة وقوة التصميم على تنفيذ ما يؤمن بأنه الحق وذلك الاباء الذي ذهب غيث شهيدا له والذي كان مشعلا على درب الحرية الطويل ينير جوانبها للسالكين والذي يصور مثله أمير الشعراء وقد ضرب الفرنسيون دمشق بالقنابل مروعين سربها مقتلين أطفالها إذ يقول :

قال ما تصنع يا غيث بها قلوب كالحجارة لا ترق

وفيما يلي ذلك الحوار الجاد الدامي بين غيث والوالي بشأن مئة ليرة ايطالية وهي كما نرى وكما عبر عنها الشاعر حطام تافه وفيه ما فيه من استدراج قذر من مستعمر حاقد لئيم :

وللمستعمرين وإن ألانوا قل لي الحق ولا تخشى الملاما
قال غيث وبدا الجد على وجهه يشبه ليثا أو قطاما
إن لي ثأرا إذا أدركته لا أبالي بعد إن ذقت حماما
نظر الوالي إلى غيث ولم يظهر الحقد ولا أبدى ملاما
ورأى اتباعه ما غاظهم فتعاطوا نظرة كانت كلاما
عادة النذل اغتيال ولذا جعلوا سرا له السمّ طعاما
ما جرى في جوفه حتى سرى في وتين القلب كالنار اضطراما
خر للموت صريعا يلتوى يطلب الماء فيبدون ابتساما
لم يزل ينفث من فيه دما أسوداً من كبد ذابت رماما
يلفظ الآخر من أنفاسه وينادي الانتقام الانتقاما
راح مظلوما شهيدا جاعلا لفظة التوحيد لله ختاما

والشاعر أحمد رفيق الوطني الغيور إذا امتزجت الوطنية لديه بالحنين في كثير من قصائده أو بوصف المعارك وآثام المستعمرين فكثيرا ما كانت تبرز في صورة الشكوى الخالصة من المستعمرين واشياعهم وهي اما شكوى جادة متشحة بظلال قاتمة حالكة السواد في نفسه وتعبيرا عن احساسات المخلصين من أبناء الوطن يندفع الشاعر في وصف واقعي صادق محزن لما تردى فيه الوطن من السوء حتى ضاق به ابناؤه الاوفياء المتشبثون به مهما هددوا به من تقتيل أو زج في غيابات السجون لما عانوه من ظلم وحيف وتعقب وإذلال الى درجة المساواة بأحقر الدخلاء من اتباع المستعمر وادوات قمعه من يهود وأحباش وصوماليين إذ يقول :

(١) إلى متى نحن في هم وأوجال ... نحيا على الضيم في سجن وأغلال
في بلدة كوجار الكلب منزلة ... ضاقت بنا بين أعداء وجهال
هانت علينا وقد كانت محبتها ... فرضا على كل حر النفس مفضال
فالقبر أفضل منها للكريم وقد ... ساماه فيها يهودي وصومالي
وربما هان خطب النازلين بنا ... لو لم يعززه خطب الصحب والآل
نصف البلاء أتى من هم غاصبنا ... والنصف منا بأحقاد وأذحال

ويسترسل الشاعر في وصف مصائب الوطن من بعض افراده الذين باعوا ضمائرهم للمستعمر نظير ما يتقاضونه من منافع مادية ذلت من أجلها رقابهم وديست كراماتهم وبيعت ضمائرهم بأبخس الاثمان والذي آلم الشاعر ونكأ جراحات فؤاده أن يطعن الوطن من بعض أدعياء الدين والشرع الحنيف . فهذا قاض انساق مع رغبات المستعمر لدرجة مهينة حتى فقد شخصيته وما تنص عليه مبادىء دينه الحنيف الداعية الى جهاد الكلمة وهو

---

(١) من مذكرة لكاتب المقال قررت على السنة الرابعة كلية اللغة العربية بالبيضاء .

أفضل الجهاد لانه يذل المستعمر المتغطرس وإذا الشاعر يحصي على ذلك القاضي آثامه ويسخر منه في صور أدبية لاذعة مستعملا الالفاظ العامية النبي يرى أثرها القوي في قتله قتلا أدبيا لينزجر سامعوها ممن بقيت لهم بقية من حمية عربية تحول بينهم وبين السير في ركاب المستعمرين يسترسل الشاعر فيقول :

قاض قضى الدهر أن تشقى البلاد به ... من جور حكم واغفال واهمال
يرضى بما يغضب المولى ويسخطه ... إن كان في ذاك مايرضى به الوالي
يكاد يسجد للحكام مرتعدا ... من جبنه بين ترحيب واجلال
لو أنهم أمروه أن يبيح لهم ... نساءنا لأتى بالنص في الحال
أفتى بفطر لاشرار تقاتلنا ... مع العدو وباع الدين بالمال
قد أذهب الطيش عنه كل هيبته ... فصار كالقرد يجري بين أطفال
يهز لحيته في كل مجتمع ... كالتيس غطى على القرنين بالشال

فرحة العودة وجهاد في سبيل الوحدة

وتدور الايام دورتها « وتلك الايام نداولها بين الناس » ويعود الشاعر وقد امتد به العمر حتى شهد مصرع البغي واندحار المستعمر ذليلا صاغرا مهزوما مشيعا بازدراء الشاعر وسخريته من غروره الزائف إذ يقول من قصيدة مطلعها :

إذا انتلف الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

يعود الشاعر وقد ملأ السرور والابتهاج أقطار نفسه حتى فاضت بفرحة الاياب جوانحه وتدفقت الفرحة أنغاما عذبة رفافة على أمواج الشعر العلوية الآخذة بمجامع الافئدة تحدوه الاشواق وبشائر الامل

الباسم تستحثه السير وتذكي في نفسه مضاعفة الجهاد الحقيقي الذي يطلبه الوطن من المخلصين من ابنائه وطبيعة هذه المرحلة من مراحل الجهاد تحتم التبصير بخداع الاعداء مثلين في حكومة عهد الادارات ودعوة ابناء الامة للالتفاف حول الرأي الداعي الى وحدة الوطن وعدم الاصغاء لمن يدعون الوطنية ويحاولون تصديع الوحدة لنيل أطماع شخصية يضحون في سبيلها بمكاسب الشعب وآماله في الوحدة وهو يخلص الوطن في هذه المرحلة كما أخلص له في العهود السابقة وهو يصدع برأي الحر الجريء فيرمي بالخيانة والردة كل من عمل للفرقة التي لا تخدم إلا أعداء الوطن أو أعاق السبيل للوحدة ويرى أن سبيل النجح في تحقيق هذا المطلب الوطني لن يكون الا بجمع الكلمة واتحاد ابناء الوطن فاما نجح يحقق الآمال أو موت جماعي في سبيل تحقيقها وهو يرى أن هذا التحقيق ممكن كل الامكان لمواطنين أكدوا شجاعة الآباء والاجداد بدفاعهم عن العرين ودحر المستعمرين .

ولقد تجلت فرحة الشاعر بالعودة وحماسته للنضال في هذه المرحلة في براعة اختياره لمجزوء الكامل وما يوفره للعواطف من انطلاق حر وبما يمتاز به البحر من حيوية الحركة وتدفق النغم الموسيقي المصور لخصب العواطف وسرعة تلاحقها وارتفاع فورانها وهذه بعض ابيات القصيدة التي كانت أول قصيدة له في رحاب الوطن بعد عودته من تركيا سنة ١٩٤٦ م :

(١) رجع المطوح من بعاده ... عاد الغريب الى بلاده
الحب يفعم روحه ... والشوق يلهب في فؤاده
وبشائر المستقبل الزا ... هي تضاعف من جهاده
ليرى حياة حرة ... هي وحدها أقصى مراده
كانت مناه وكان من ... جرائها سبب اضطهاده

(١) ديوان رفيق ج ١/٢٧ ـ ٢٨

ومنهـا :

ظلـم العـدو وجـوره بلـغ النهايـة في اشـتداده
قـد صر لكـن لم يكـن بأضر من عـدم اتحـاده
من ذا الـذي يدعو الـى تقسـيم جـزء وانفـراده
تفـريق « برقـة » عـن « طرا بلس » خروج عـن سداده
مـا تلـك غـير جنـاية تأتـي على باقي عتـاده

ومنهـا :

فاحكم على المنشق عـن رأي الجمـاعة بارتـداده
وعلـى المسر لنيـل نفـ ـع بالتزعـزع في اعتقـاده
وعلـى المشـاغب للمـرا تب بالمصيبة في رشـاده

الى أن يقول :

فـاذا أردتـم نجحـه فيمـا يحـاول من جهـاده
كونـوا جميعـا قـوة لا كـل فـرد باجتهـاده
إمـا الحيـاة معـا وإما (م) المـوت في سـبل اتحـاده

وقصائد الشاعر الوطنية أكثر من ان تحصى وهو فيها وطني غيور وخصم عنيد لا يقبل المساومة ولا تأخذه في وطنيته لومة لائم ولا يخشى من متجبر عقابا فهو مثلا في قصيدة له بعنوان ايقاظ وتحذير يهز الشعب هزا عنيفا ليفيق من سباته وليبصر ما يحاك له من مكائد وما يحيق بوطنه من أخطار وهو يحذر من فئة اتخذت من الدين ستارا لتخدع بـه عامة الشعب تلك الفئة التي خانت يوما وحكمت في الشعب فعسفت ومالأت المستعمر لنيل الاموال والرتب وهي آثمة في ادعائها الوطنية بعد خيانة وهو يضرب

مثلا قاسيا فيه بشاعة هتك العرض الذي لا يعاد اليه شرفه مهما أظهر صاحبه من توبة وصلاح فهو مأجور لا يخلص إلا لسيده المستعمر الذي اشتراه بالاصفر الرنان وهويتهكم بمن يمني نفسه باستقلال برقة ثقة في وعود بريطانيا ثعلب السياسة الاستعمارية الخبيث الذي ظهر صدق وعوده في تفريق السودان عن مصر والهند عن الباكستان ومازالت يدها الآثمة مخضبة بجراح فلسطين العربية .

ولهذا فهو يحث على اليقظة وعدم الاغترار بغير المسلمين ويدعوهم الى الاستعانة باخوانهم العرب الذين تمثل الجامعة العربية ويحضهم على التمسك بالوحدة والاعتصام بها للنجاة من كيد الاستعمار ممثلا في الادارات البريطانية والفرنسية والايطالية ، يقول الشاعر وقد جرت فيه روح مشابهة لروح الشاعر أبي القاسم الشابي مع اتزان هو ثمرة تقدم السن في هذه الفترة :

(١)ألفوا الكرى واستعذبوا الأحلاما (حرك(٢)) لعلك توقظ النواما
يا ويح هذا الشعب طال رقاده فمتى يهب من الرقاد قياما
ومتى يفتح عينه متنبها لخزعيلات الفاسدين ذماما
المدعين بباطل وطنية راحوا بها يتصيدون مراما
يا أيها المتزعمون وما لكم حق يخولكم لذاك مقاما
لستم بأهل أن تسوسوا أمة لم ترضكم لأمورها قواما
للشعب في هذا الزمان ارادة تملي الحقوق وتصدر الأحكاما
عصفت بسيطرة الملوك ولم تدع لتحكم المتجبرين دواما
صارت أمور الناس شورى بينهم لا يملك الباعي لهم إرغاما

---

(١) الديوان ج ١/٣٧ ـ ٥٨
(٢) حرك كلمة عامية المقصود منها ابعث الألم في الجسد

في سيرة(الدوتشي) (وهتلر)عبرة لمن استبد وسفه الأحلاما
وإذا استبد الفرد بين جماعة كانوا وان سعدوا به أنعاما

إلى أن يقول :

من ظن أنعلى الوظيفة رزقه عبد العبيد وناصر الظلاما
ومن ادعى الإخلاص بعد خيانة وطنية فقد ادعى آثاما
إن البكارة إن أزيلت مرة لن يسترد لها العلاج ختاما
يا قوم إن بلادكم ليضرها أن تقبلوا لمصيرها أقساما
في الهند والسودان موعظة لمن جعلوا بديل الاتحاد خصاما
الغرب متحد على استعبادنا فعلا ، ومختلفون نحن كلاما
لا تآمنوا إلا لتابع دينكم ممن يحب الشرق والإسلاما
شدوا (بجامعة العروبة) أزركم وتمسكوا بالوحدة استعصاما

وكأن وطنية الشاعر وصراحته قد اساءت الكثيرين ممن أقض مضاجعهم نقده الوطني الجسور فأغروا به من يهجوه فارسل قصيدته « في سبيل الحق » مهددا منذرا أولئك بأنه لما يبتدىء بالنقد الحقيقي لأمثالهم وانما كانت قصائده حتى هذه القصيدة مجرد تقديم نصح صادق مخلص غير مجامل ووصف حقيقي لكثير من الأوضاع غير السليمة التي ظلم فيها من نصبوا انفسهم قواما على شؤون الرعية فاستباحوا حقها وعدوا مصالحها وأنه سيدافع عن كرامته وكرامة وطنه ومواطنيه بمقول يصمي الخصوم ويسم أنوفهم بمياسم الذل والهوان وأن مثله من لم يخش عواقب النقد الوطني في أقسى عهود البطش الايطالي إبان حكم العتاة المتجبرين من الطليان مثل بالبو وديبونو ووكّارى لا يخشى أن يجهر برأيه في شراذم باعت ضمائرها بثمن بخس دراهم معدودة .

وتهكم بخصومه من ساسة لا ضمائر لهم واستفسر عن استيائهم أهو أن الشاعر قد كشف نواياهم أم هو لأنه نصحهم بأن حرية الشعب ليست مجال مساومة فلن يستبد بها فرد أو جماعة غير حرة في ارادتها وضمائرها وأنه هددهم بأن الشعب سيصدر في أمثالهم حكمه كما أصدر الشعب الالماني حكمه في عمد النازي الذين استبدوا بارادة الشعب وزجوا به في أتون حرب أحرقت زهرات أبنائه كما أورثته الهزيمة والعار • من أبيات القصيدة قوله :

(١) لم أبتدىء بعد في نقدي وانكاري ... لما أشاهد من ظلم ومن عار
صرحت بالحق في رفق فضج له ... اعداؤه وانطووا مني على ثار
قالوا: قد استاء بعض الناس قلت لهم ... (العير يضرط والمكواة في النار)
مهلا رويدا ستأتيهم « كقنبلة ... ذرية » تنسف الطغيان أشعاري
قيل الخفافيش قد قامت تناوئني ... (قلت الفراشة قد تدنو من النار)(٢)
(تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقي صولة المستأسد الضاري)
وهل أبالي بغمز الليل حين وشى ... بي راقص عند طبال وزمار
ضرب المسامير داء من أصيب به ... فليس يشفيه الا ضرب مسمار
من ساءه منطقي (فلينفلق) حنقا ... أو فليمت كمدا من غيظه الواري
لم أخش (بصاصة) الطليان ترصدني ... أيام (بالبو) و(ديبونو) و(وكاري)(٤)
نازلتهم لا أبالي سوء عاقبة ... ولا عقابا ولا تهديد جبار
فكيف تطلب مني الصمت شرذمة ... باعت ضمائرها جهرا بدينار

---

(١) الديوا ج ١/٣٥ ـ ٣٦
(٢) لابن زيدون
(٣) لأبي ذؤيب الهذلي
(٤) من أشرس ولاة برقة من الطليان

الى أن يقــول :

أتعلمون من المسؤول بعد غــد إذا وقعنــا معــا في كف غــدار
تذكروا عمد النازي وما حكموا به عليهــم ودانوهــم كأشــرار
لا بد للشعب من يوم يحاسبكم على حقــوق له باءت بأضــرار

ونلاحظ أن الشاعر قد كان منفعــلا انفعالا صادقا عبر عنــه بجرأة وتدفق جيشان فطفا على سطح ذاكرته الواعية الحافظة كثير من محفوظــه من التراث العربي على مختلف عصوره كما ضمن القصيدة الكثير مــن معارفه الحياتية ومعاناته إبان عهود الحكم الايطالي الظالم وبعض الامثال وكذلك العبارات العامية على ما في بعضها من سوقية قاسية ناسبت شدة التهديد ووضحت استعداد الشاعر لان يكون حاد الهجاء مقذعة ان كــان خصومه لا ينزجرون إلا بهذا اللون من الهجاء .

ولكن وطنية الشاعر ليست كلها آلاما ودموع شوق وحرق اغتراب وحنينا هو ذوب الفؤاد الخفاق للوطن الجميل العزيز المحبوب أو نضــالا عنيفا في سبيل خير الوطن وعزة المواطنين وأمنهــم ورفاهيتهم وحريتهم يصارع من أجلهــم طغيان حكام الاستعمار ويــراوغ عيونهم الراصــدة لحركاته المشنعة عليه لدى اسيادها بما لم يقترف . كما أنها ليست جهراً بحقوق الشعب ودعوة مخلصة للوحدة التي هي السبيل الوحيد لتحقيق الاستقلال الحقيقي وسيادة الوطن والمواطن والتنديد ممن رغبوا في تفريق وحدته لتحقيق مآربهم الشخصية مما يؤلب عليه الخصوم يرمونه بالزيغ والمروق بل كان للوطنية لديه مظاهر أخرى هي الفرح إن أصاب نجحــا وتقدم بخطوات الاستقلال التام أشواطا وهي كذلك تصوير للشموع التي تحترق في صمت لتنير مشاعل الثقافة وتربية الاجيال كتصويره حال المعلم وما صارت اليه من بؤس ودعوة صادقة للاخذ بيده وإزالة الضر الــذي

حسه ودعوة صادقة لتعليم الفتاة وهي نصف المجتمع لتحرر من قيودها وتنطلق ارادتها الحرة الواعية إذ هي فتاة اليوم وأم المستقبل ومعلمة الاجيال الصاعدة هذا الى تصويره البارع لجمال طبيعة الوطن وتبصيره بقيمتها وفي هذا تحبيب به لقلوب المواطنين واشادته بما توصل اليه العلم من ثمرات العقول كالكهرباء والمذياع وهو بذلك يدعو للتسلح بالعلم وسيلة الغرب للتقدم والقوة التي أذلوا بها الشعوب المستعمرة فاذا ارادت الشعوب الحرية والسيادة في أوطانها فلا بد لها من التسلح بنفس ذلك السلاح ذي الحدين القاطعين .

فها هو يطرب وينتشي لفوز القضية الليبية في هيئة الامم المتحدة التي قررت سيادة ليبيا على أرضها وحقها في تقرير المصير الذي ترتضيه ونوع الحكم الذي تختاره وهو يندد بالاعيب بريطانيا وحيلها الاستعمارية القذرة ويحذر من المصير الذي آل اليه قطر الاردن الذي اتخذ من نفسه مواليا لها وهي التي تحاول أن تعيد الدور مع ليبيا اذ قسمتها الى ثلاث ولايات متنافرة ولن تكون نتيجة قبول فكرة التجزئة الا كما جنت براقش كلبة الشؤم على أصحابها بنبأ المشؤوم الذي أودى بهم إذ دل أعداءهم عليهم فصبحوهم بكرة بعذاب وهو ينصح الشعب مخلصا لان يعي نصحه ويحزم أمره وينفذ ما يمليه عليه ضميره من جمع الكلمة عمل على الاستقلال الحقيقي ووحدة تراب الوطن فيقول :

(١) فازت قضيتنا بكل نجاح ... فاليوم يوم السعد والافراح
نجحت بفضل الله رغم عدوة ... دأبت تحاربنا بشر سلاح
كم مثلت فينا « مسيلمة » بما ... قد أخلفت وتنبأت « كسجاح »
حتى اذا فشلت وفاز نصيبنا ... ببلوغ حق كالنهار صراح

(١) الديوان حـ ١/٤١ ـ ٤٢ .

منعت مظاهرة السرور لانها وذيولها في الغم والاتراح
يا أيها الشعب انتبه لسياسة فراقة تأتي على الارواح
ستكون حملتها على استقلالنا ليضيع بين تخاصم وتلاحي
ولسوف تخدعنا بعهد مثلما فعلت بشرق الاردن المجتاح
فتعيد سيرتها التي بدأت بها يوم انتحت منا ثلاث نواح
ونكون نحن لها «براقش» ماجنت الا على أصحابها بنباح
يا أيها الشعب استمع لنصيحة بتدبر وافطن الى النصاح
عملا على استقلالنا في وحدة في ظل عرش قائم لكفاح

ويصور الشاعر حال المعلم في واقعية وصدق وغنائية حزينة تقطع نياط القلوب لهذا الانسان النبيل الذي يحترق لاسعاد المجتمع دون أي انتظار لتقدير من افراده على مختلف مستوياتهم العقلية والاجتماعية كما يصور شقاءه بمهنته النبيلة في اعداد الدروس ليلا وتوصيلها للاذهان نهارا وترقب زيارات المفتش وتوجيهاته غير السديدة ومعاناة ضبط الفصل وحل شكايات التلاميذ والتغلب على عبثهم وخبث البعض منهم وهو على كل هذا ملوم أشد اللوم مهضوم أشد الهضم إن سقط غبي منهم فاصبح الاتهام يشير اليه وهو الذي فاق غيره من ابناء مجتمعه فنصب نفسه لهذه المهنة الشاقة الرفيعة التي لا يقدرها قدرها ولا يحسن الثواب عليها إلا الله تعالى الذي كانت أولى آيات كتابه حثا عليها وتنويها بشأنها « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق إقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » والشاعر ينحي باللوم على المجتمع الذي لا يوفر للمعلم الحياة التي تليق بنبل رسالته بل لا يوفر له ما يوفره للجهال من الناس فلم يسلم المعلم من ازدراء المجتمع له وتقليلهم من شأنه على أنهم يجلون من هم دونه للثراء وإن كانوا خلوا من فضيلة وبر ويود له الانعتاق من حياته

التي استبعده فيها الدرهم لانـه لابد من توفيـره لحفظ الرمق وإقامة الأود .

فمن قصيدة له عنوانها حـال المعلم هذه الابيـات :

(١) بحرفته أشقى العبـاد المعلم ... يعيش فيقتضـى عمـره يتألـم
يقاسي عناء الدرس طول نهاره ... ويسهـر فيمـا في غد سيعلـم
يعاشر أحداثا فلاهم ذوو حجى ... ولا هـم مجانين فيبعد عنهـم
يعـد لهـم أم للمفتش درسه ... له الله كم قد بات يبني ويهـدم
يعالج شطارا فيسكـت واحـد ... لمكـر ولكـن عشرة تتكلـم
ومن أعظم البلوى إذ كان بينهم ... خبيث علـى استـاذه يتهكـم
يجود بأقصى ما يجيد ليفهمـوا ... وما منهـم الا أصـم وابكـم
ومن أغيظ الاشياء للنفس صرفها ... قواها الى تفهيم من ليس يفهـم
فلست ترى مثل المعلـم صابرا ... ولا مثلـه من يستشار فيحلـم
له الله لا فيمـا يزاول راحـة ... لجسم ولا من ألسن الناس يسلم
سقوط بليد العقل من سوء حظه ... يـلام بلا ذنـب علبـه ويشتم
فما قدروا حـق المعلـم قـدره ... ومن حقـه كالوالـدين يعظـم
كفى شرفـا لاسم المعلـم أنـه ... به كان «عيسى» قبل يدعى ويكرم
فلـو لم يكن قدر المعلم عندهم ... عظيما لما كنـوا به حين عظمـوا
وهل جاد غرس العلم في عقل طالب ... وأثمـر الا مـا سـقاه المعلـم
ولكن هضم الحق في الناس عادة ... يصاب بها الحـر الاديب ويهضم
لقد حـرم النعمى وأشقاه عقلـه ... وأزرى به من في الشقاوة ينعـم

---

(١) الديوان ج ١/١٣٨ ـ ١٣٩

فلا كان هذا العيش ان كان نيله يحتم أن يستعبد الناس درهم

حقا انها لمأساة انسانية كبرى تتسع حتى تشمل وطننا العربي الكبير ان لم تتجاوز الى أقطار أخرى ممن ضاقت معارفهم فجحدوا حق هداة البشرية في العيش الكريم الذي يرسمون للاجيال صوره وينيرون لبلوغها دروب المدلجين ولم يكن أمير شعراء ليبيا هو الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقة الدامية فنبه لفداحة خطبها بل شاركه في ذلك أمير القوافي في أرض الكنانة حين يعلي من قدر المعلم ويحث على تكريمه بتفصيل القول في بيان نبل رسالته التي ارتقى بها شوقي الى مصاف الرسالات السماوية لانها تخدم نفس أهدافها إذ يقول :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبنى وينشىء أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الاولى
أرسلت بالتوراة موسى هاديا وابن البتول فعلم الانجيلا

واذا تركزت قصيدة أمير الشعراء على تكريم المدرس والمطالبة بحقه في العيش الكريم دون الغوص الى أعماق مأساته الانسانية لان الشاعر رجل مترف لانه ربيب القصر الخديوي فان شاعر فلسطين إبراهيم طوقان الذي عانى من التدريس بعد أن تعقبه الاستعمار البريطاني ففصله من عمله في الاذاعة المسموعة بالقدس وأجبره على مغادرة وطنه للقطر الشقيق العراق حيث زاول حرفة التعليم على ما به من مرض مزمن في الفؤاد ، ان شاعرنا هذا يتعمق مأساة المدرس في الوطن العربي ويرد على شوقي الذي يحبذها دون تجربة بقوله :

ويكاد يفلقني الامير بقوله قم للمعلم وفه التبجيلا
لو زاول التعليم شوقي ساعة لقضى الحياة مناحة وعويلا

الى أن يقــول :

وأتى ابن كلب بعــد ذلك كلــه رفــع المضاف إليــه والمفعــولا
يا مــن يريد الانتحــار وجدته ان المعلــم لا يعيشــ طويــلا

ومن دلالات وطنية الشاعر وحرصه على التنويه بدور المرأة في رقي الوطن سواء أكانت مربية في المدرسة أم أما في البيت فهو يشيد بدورهــا الحيوي معلمة لزهرات اليوم وأمهات المستقبل وانها تولي هذه الزهــرات عناية ورعايه لا تقل عن عناية الام الحقيقية الرءوم ورعايتها ولذا تثمــر جهودها أزكى النبت وأطيب الثمار أخلاقا حميدة تسعد الازواج وينعــم بدفء حنانها الابناء وفنونا يدوية رفيعة تسمو بذوق الاسرة فترقى بذلك الامة وتحفظ على الاسرة نصيبا لا يستهان به من دخلها بما تتقنه من فنون الحياكة والتطريز وصناعة الملابس الى ما قد تتفوق فيه مــن رسم ونحت وموسيقى ترهف الاحساس وتوقظ الضمائر وتحبب في الفضائل والشاعر يرى أن الام نواة المجتمع صلاحه في صلاحهــا وأن تربيتها على الاخــلاق الفاضلة والادب الرفيع ضمان لها من المزالق الخلقية ومساعدة لهــا علــى الخروج لتأدية رسالتها نحو المجتمع خارج البيت مع طمأنينة الاسرة علــى صونها وعفافها اذ لها من سمو أخلاقها حارس أمين بل يسمو الشاعر بقيمة الام عندما يخلع عليها صورة القلب النابض الذي يهب الامــم الحيــوية والحياة فلا حياة للامم بغير الامهات الحصيفات الواعيات .

ولهذا فهو يحض على ضرورة تعليــم الفتيات ما يغرس فيهــن روح الامومة الاصيلة إذ رسالتهن الاولى في الحياة هي انجاب الاجيال وتربيتها على الفضيلة وتبصيرهم بما يعــود بالخير العميم علــى الاوطان ، يقــول الشاعر من قصيدة بعنوان للام في نسلهــا نصيب :

نجاح تعليمنا البنات دليل فضل المعلمات
شكرا لسعي بذلن فيه عناية الام مخلصات
فمن مساع « حميدة » في مطالب العلم ناجحات
ومن فنون « بديعة » في بدائع الفن باهرات
ثمار غرس تعهدته بالرعي ألحاظ ساهرات
تعهد النبت وهو غض ـ جناه يأتي بطيبات
البنت كالنبت خيره في نجابة العرق والنواة
أما ترى في الحصاد تبدو خباثة البذر والنبات
إن قيل إن الفتاة أم لامة في غد سيأتي
فما رقي الشعوب إلا بامهات مهذبات
للام في نسلها نصيب مما لها من تعودات
هي النواة التي عليها سعادة الاهل في الحياة
تهذيب أخلاقها كفيل بصونها بين سافرات
وهل مع الجهل ما يرجى من وأدها بين جاهلات
البيت عنوان ما لقوم وما لشعب من الصفات
إني أرى للنساء فيه وظيفة القلب في الذوات
صلاحه لا يكون إلا بهن إن كن صالحات
فعلموهن ما يربي فيهن روح المربيات
نريد منهن أن يكن ربات بيت وأمهات

الغزل في شعر الشاعر أحمد رفيق

أحمد رفيق رجل مثالي لا يرضى بما دون الكمال في السلوك الانساني رأينا أنه قد بلغ في وطنيته آفاقا عليا قارع بها الخصم الالد والعدو العاتي وفارق من أجلها وطنه وعاد اليه مرارا وهو على كلا حاليه مجاهد بنفسه ولسانه في سبيل الوطن لا يقبل في سبيل الوفاء له المساومة ولا يخشى لومة لائم ويستعذب من أجله السجن والعذاب .

وهو لمثاليته لا يتكالب على المادة ولا حائل يحول بينه وبين تتبع منابع الجمال في الطبيعة والانسان يعتبر من أبدع مظاهر الجمال فيها وخصوصا إن اجتمع فيه جمال الخلق وجمال الخلق ، خفة الروح ورشاقة الحركات إن مثل هذا الانسان لا بد أن يستهوي أحمد رفيق ويأسره خصوصا إذا علمنا أن الشاعر قد نشأ بين أحضان الطبيعة الباسمة وبين أعطاف النعيم الذي يخلى فيه بين الشاعر الصبي وبين رغد العيش في أحضان المصائف الجميلة على سفوح الجبل الغربي وشواطىء الاسكندرية ومصايف بنغازي ممثلة في جليانة وقهوة الشط وجنان المحيشي وغيرها من مواطن الذكريات ومهابط الالهام .

وديوان الشاعر قد حفل بكثير من القصائد التي صور فيها الشاعر مراحل الحب من بواكير تفتح عواطفه على استحياء في بواكير الشبان حيث لم يكن الشاعر الناشىء يميز بين جد الحب وصداقات الطفولة البريئة من شوائب الحب الجسدي الى تصوير صادق لتجربة الحب الناضجة وما أحسه الشاعر أثناءها نشوة روحية ووصال وما تفتح الكون لناظري الشاعر عليه من أسرار الجمال التي أضفاها الحب على عناصر الطبيعة العلوية

والارضية من جمال القمر وحسن صورته على صفحة الماء الفضية كأنه يهدي الشاعر ومحبوبه صورة احدى ذكريات حبهما الغالي لتكون عونا لهما ان عبثت يد الليالي بذلك الحب فابدلتهما بالوصال هجرانا وبالصفو كدرا وإذا الشاعر في نشوة الحب وإشراق الحياة به يشعر أنهما قد ارتفعا الى مستوى ما فوق البشر وحتى غدت ليلتهما هي ليلة القدر في طيبها وعميم نفعها وإذا الشاعر يسطر في شعره ذكريات ذلك الحب بعد مرور تسع سنوات عليه لعلها سنوات هجرته مع والده للاسكندرية ثم عودته بعد اتفاق الرجمة سنة ١٩٢٢ م وإذا هو يسجل هذه الذكرى التي أعادت لقلبيهما ذكريات ما زالت حية ينبض بهاقلباهما الفتيان والتي صور عنفوانها بأنها قد منعتهما عن الحديث ووردت خديهما بحمرة الخجل فقنعا بابتسامة أحيت كامن الذكريات ولاعجها فمما قاله الشاعر من قصيدته مبدأ الحب :

(١) عشقت وكنت لا أدري ... ولا أعرف ما الحب
ولا يخطر في فكري ... بأني عاشق صب
لنا في ساحل البحر ... لقاء ساعة العصر
نخوض الماء أو نجري ... على الشاطىء لا ندري
بأنا للهوى نحبو ... وإلا أننا صحب
فما زال تلاقينا ... يزيد الحب تمكينا
فنشعر في تناجينا ... بسر غامض فينا
كسر الكهربا صعب ... تحير عنده القلب
وظل السر مخفيا ... عن الادراك مطويا
وشب الحب عذريا ... قويا جارفا حيا
أليما مره عذب ... وحلو سهله صعب

(١) الديوان الفترة الرابعة والاخيرة ص ٢١٣ .

وكانت قبلة حرى كشفت ببردها السرا
عرفت الشعر والسحرا وذقت بخمرها سكرا
عرفت وليس لي لب عرفت بأنه الحب
عرفت الحب لا يخفى عن العينين في العين
وفي سحرهما خطفا لوحي بين قلبين
وفي الثغر إذا رفا عن الدر بسمطين
رشفت رحيقه رشفا فكان السكر سكرين
سكرنا بالهوى صرفا وبالممزوج بالبين
فكم كان الرضا عطفا وكم نغصه العتب
ولكن لم أكن أدري على ما مر من عمري
ولا أدرك من أمري ولا يخطر في فكري
بأني عاشق صب فهل هذا هو الحب

فالقصيدة تجربة كاملة مبكرة للحب بما فيه من مشاعر غامضة تجذب الإلف للإلف يذكيها التقارب وتكرس لها المناسبات أو تعمل الحيل لإيجاد فرص التقارب وتملي الجمال الآسر ثم تقع التجربة بعد أن تهيأ الاجواء لنضجها لقاء فاعجاب فتقارب فيكون أول رسول للغرام وأول سهام كيوبيد إنه قبلة الاعجاب والوجد وعواطف الشباب المتدفقة التي تضع النقط على الحروف فاذا حقيقة الحب رفافة جلية توضح غامض العواطف وتجلو هويتها فاذا الشاعر وهو على أعتاب العقل والرشد وقد ودع سني ما بين الطفولة والشباب الزاخر بالحياة يدرك حقيقة الحب الخالدة يدركها في سحر العيون ما فيهما من بريق خاطف يعبر عن العواطف المشبوبة في القلبين ويتذوقها في رضاب ثغر الحبيب يسكر بصفو العيش به راضيا وكدره بهجرانه أو بعاده ويؤكد الشاعر أن هذه التجربة هي الاولى في حياته

العاطفية فهو ما زال غير مدرك ان كان ما مر به هو الحب .

وأحمد رفيق سعيد بتجربة يصورها في عفوية ويسر وتحرر قد اتخذ الموشح إطارا للقصيدة وان لـم يلتزمه تمام الالتـزام خصوصا في الفصل ما قبل الاخير الذي جعله خمسة أبيات بدلا من بيتين كان يعقبهما بالقفـل ثم هو بعد ذلك يجعل خرجته فصيحة على غير نظام الموشح الاندلسي عند ابن قزمان الاندلسي وان كان هذا ليس بدعا في عالم التوشيح عنـد ابن سناء الملك وغيره من وشاحي المشرق .

أما في قصيدة « ما العمر إلا ليلة » فقد بدا الشاعر محبا عريقا مولهـا فهو يدعو حبيبه أن يغتنما صفو ليالي الصيف الجميلة القمراء تحت ظلال الاشجار المزهرة حيث يعيشان صفو الذهول عـن مادية الحياة وصـراع المادة في ما يشبه احلام يقظة الحب وما عبر عنه الشاعر سكر خمرة الهـوى الذي يضاعف منه نفح الفل وطيب وقت السحر .

والشاعر يصور تجربة الحب في قدر كبير من الرومنسية حيث يخلع مباهج حبه على الطبيعة ويبعث فيها أسباب الحياة وعواطف الانسان انـه يجمل الطبيعة يخلع عليها من جمال الحب فالنسمات لا تتعطر بمرورها على الازهار المتفتحة الندية وقت السحر وانمـا هي عبقة بريا الحبيب وبعطـر الحب . وإذا به لا يعزو تبسم المطر لما أصابه من دموع المطر وانما لابتهاجه بالانصات لاخبار سعادة الحبيبين بلفتها له نسمات السحر التي ألمت بهمـا وإذا البدر سعيد بسعادتهما كأن به حياء أن يعكـر عليهما صفو خلوتهـا ويتعجب الشاعر من غفلته عن إدراك هذا الجمال الرفاف في عناصر الطبيعة الذي زاد عن سابق مألوف الشاعر منه ولا يجد تعليلا معقولا لهذا الجمال الساحر إلا جمال الحب الذي زين صفحة الكون في ناظريه ويتعمق الشاعر في تشخيص عناصر الطبيعة عندما يعلل جمال صورة القمر على صفحة البركة

في تلك السحرة الحالمة بأن القمر قد تأنق في ابداعها ليهديها للحبيبين ذكرى لحبهما الذي نعما به في تلك الليلة ولتكـون مسعدة لهما إن رميا بسهـام الفراق القاتلة . يقول أحمد رفيق :

(١) في سكون الليل في ضوء القمر ... في ليالي الصيف ما أحلى السمر
يـا حبيبي قـم بنـا نحلـم في ... يقظـة بالحب في ظل الشـجر
قم بنا نسكر من خمـر الهوى ... في نسيم الفل في وقت السـحر
نسـمات كلمـا مـرت بنـا ... نقلت عنـا لانفـاس الزهـر
فـاذا هبت مـع الصبـح لهـا ... نفحـة فهـي وشـايات الخبـر
يا حبيبي كـل شـيء حولنـا ... باسـم يغبطنـا حتـى الحجـر
مـا ترى البدر بنـا مبتهجـا ... يتلقانـا ببشـر في خفـر
يـا لـه الليلـة مـا أجملـه ... كيف عن عيني الى الآن استتر
أتـرى زاد علـى معتـاده ... أم هـو الحب تجلى في البصـر
فـأرانا غـير مـا كنـا نـرى ... فظننـا أننـا فـوق البشـر
بلـغ الحب بنـا مرتبـة ... بعدهـا لم يبـق للحب وطـر
يا حبيبي وانظـر البركـة قـد ... عكس المـاء بهـا ضوء القمـر
أتظـن البـدر فيهـا إذ بـدا ... عبثـا مستجلبـا منـا النظـر
إنمـا أهـدى لذكـرى حبنـا ... مـن غوالي رسمه إحدى الصور
فلتكـن ذكـرى لنـا مسـعدة ... كلمـا جارت تصـاريف القـدر
ولتكـن ليلتنـا في عمرنـا ... ليلة القـدر الى الفجـر الاغـر

أما قصيدة الشاعر جراح قلب وهي التي أنشأها سنة ١٩٣٤ م فهي

---

(١) الديوان حـ١/٧٥-٧٦ .

على حظ من الغنائية الحزينة والعفوية المحببة للنفوس الدالة على صديق العاطفة التي عبر بها الشاعر عن ذكريات صادقة قديمة لتجربة لم تمكنه الايام من اجتناء ثمارها فهو قبل هذه الفترة كان قد ترك الوطن ونزح تحت ضغط الجبروت الايطالي للمرة الثانية وكانت وجهته تلك بلدة جيحان فلما عاد الى بنغازي أبصر بمحض المصادفة حبيبا قديما أزعجته النوى عنه وكان لتلك المصادفة أثرها في إذكاء نار الذكريات والشاعر في هذه القصيدة يميل الى تصوير عواطفهما وتصرفاتهما العفوية إزاء مفاجأة لم يكونا يتوقعانها كما يصور أنها كانت أكثر جلدا على تحمل المفاجأة وقد مرت التجربة بسلام إذ طوى كل منهما على جراحات عميقة نكأتها المناسبة فتسامى على جراحه وانطلق لحالة ويسأل الشاعر أحقا ما صوره أم هو قول شاعر فيجيب بالمثل القديم إن القول ما قالت حذام ويترك الناس لظنونهم وفؤاده لجراحاته وآلامه فهو يقول :

ما بين بيت المحيشي وبين سوق الظلام
رأيت وجها جميلا أثار نار غرامي
حييته بابتسام فلم يرقه ابتسامي
وأطرق الرأس واحمر (م) وجهه من كلامي
لولا الحياء لما رد (م) لي جواب سلامي
صد الحياء كلانا عن بثّ ما في المرام
من بعد تسع سنين مرت كرؤيا المنام
وتوبة وصلاة موصولة وصيام
هاجت بقلبي ذكرى سرت كسَرْي المدام
فرحت أهتز سكرا أميل للانهزام
وراح أثبت مني بهيبة واحترام

فـلا تظنـن شـرا تهـوي بـه في الحـرام
قالـوا : أهـذا صحيح فقلت : قـالت حـذام

ومهما يكن من أمر وسواء أأحب شاعرنا فتاة بعينها منعته التقاليد العربية أن يبوح باسمها فضلا عن أن يلهج به شأن الشعراء الغزلين من حسيين ماديين أو عذريين فقد ترجم الشاعر عن عاطفة الحب التي تسيطر على عهد الشباب كما أكد أن يميل الى الجمال ممثلا في شخص الفتاة وفي مظاهر الطبيعة وفي الاخلاق أي أنه صور لنا تعلقه بالجمال المطلق الذي هو أحد القيم الثلاثة الخالدة ووصف عواطف شبابه الزاخرة التي شبهها بالجنون وأكد أنها تلفحه بنار الرغبات الجامحة فهو يقول من قصيدة بعنوان سينما العمـر :

(١) ويمـر ريعـان الشـبا ب يفـور بالنزعـات عاتي
يغلـي الـدم المهتـاج من شـهواته المتوهجات
تتفتـح الرغبـات تنـ ـتبه الحواس من السـبات
تستيقظ الاحـلام أحـ ـلام الهـوى بالمغريات
تـرى الحيـاة كأنهـا بعث الطبيعـة للحيـاة
حيويـة تسـري كمسـ ـرى الروح في نشـر الموات
بعث ، حيـاة نشـأة أخـرى شـعور بالفتاة
ميـل الى الجنس اللطيـ ـف من الحسـان الغانيات
ذوق لتأثـير الجمـال على النفوس المرهفـات
زمـن اضطرام عـواصف وخـوالج وتنهـدات
عهـد ابتـداء الحب عهـ ـد العشق عهد الذكريات

(١) الديوان حـ١/٧٩-٨١ .

كالسكر لا بل كالجنو ن وحبٌ ذلك من صفات
نار الشباب تؤجٌ في رغبات روح لا فحات
حتى إذا نضج الشبا ب وحان حمل الواجبات
وتمر أيام الكهو لة بالفتور وبالاناة

حتى في هذه الايام التي يجب أن ينصرف فيها الشخص عن رغبات الشباب وصبواته فما زالت روح شاعرنا فيها من الحيوية والميل الى متع الشباب وصباباته الشيء الكثير من ميل للجمال وتحويم حول الفاتنات اللاتي يسلبن لبه ويهيجن عواطفه ونزواته وإن كان هذا لا يمنعه من تقدير قيمة الجمال المطلق الذي به يبذل الانسان أسباب السعادة للآخرين دون انتظار جزاء .

لكنني شيخ ولي روح الشباب ولي صفاتي
روح تلوب على الجما ل تحوم حول الفاتنات
عقلي معي حتى يلو ح الحسن تكثر عربداتي
سأعيش في مرح فلا معنى ليأس في حياتي
أيقنت بعد تجاربي أن السعادة في الحياة
طهر الضمير من الضغا ئن والعداوة والشمات
ومحبة الاحسان من غير انتظار مكافآت

ويرتفع الشاعر محلقا في سماء رفعة الحب وتقديسه في عجائبه التي ما تنفك الايام تكشف منها عن كل مذهل بارع ويرتقي به الى حد اعتباره سرا محيرا من الاسرار التي أودعها الله مخلوقاته هذا السر الذي لم يدركه العقل ولا كشفت عنه تجارب العلم ويخلع الشاعر كثيرا من صفات الكهرباء وهي آية عصر الشاعر على الحب إذ فيه اشراق المصابيح الكهربائية عند

انتظام اقطابها السالبة والموجبة ولسلطانه القدرة على القهر والبطش ما للتيار الكهربائي من قوة صاعقة ويوضح الشاعر اختلاف آراء الناس فيه ما بين مادح وقادح .

أما الشاعر فانه لا يساوي بسمو منزلة الحب ومقدار سيطرته على النفوس شيئا آخر ويضرب مثلا لجبروت الحب ونفاذ سلطانه إذعان إدوارد ملك انجلترا له وتنازله عن عرش ملكه الذي لاتغيب عنه الشمس في سبيل أن يفوز بقلب من أحب متخليا عن سيطرة الملك وعز السلطان والشاعر يفضل ادوارد على كل من انطونيو وكليوبترا اللذين لم يخلصا للحب بل أرادا أن يجمعا اليه عز الملك وكذلك لم يكن مثله قيس الذي لم يضح في سبيل حبه إلا بخيمة هزيلة لا قيمة لها ولهذا فقد غدا إدوارد ملك المحبين ومثلا يحتذى في التضحية والبت في عظائم الامور بل غدا الانسان الذي برئت أخلاقه في رأي الشاعر من كل عيب فألغى بذلك المثل العربي :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها　　كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

يقول أحمد رفيق من قصيدة له بعنوان « سطوة الحب » :

هو الحب ما تنفك تترى عجائبه　　وتظهر من حين لحين غرائبه
هو السر لم يستكنه العقل كنهه　　ولا العلم حلت منه شيئا تجاربه
له من صفات الكهرباء فعالها　　إذا انتظم القطبان أشرق ثاقبه
إذا مس من تياره القلب «موجب»　　تسكن حتى يسلب اللب سالبه
لسلطانه قهر إذا ما تحكمت　　عزائمه لم يبق شيء يغالبه
تحيرت الافكار فيه فمادح　　له ولاهليه وآخر عائبه
وما زال رأي الناس في كل حادث　　كثير نواحي الخلف شتى مذاهبه
دع الناس ماشاءوا يخوضون واستمع　　عن الحب في التاريخ ما خط كاتبه

تنافر جاه الملك والحب وانتحى ... الى جانب الملك المنيع محاربه
وباهى بأسطول على البحر حاكم ... وذي لجب في البر خضر كتائبه

الى أن يقول :

هناك جاء الحب ما في عتاده ... سوى قلب انسان وسهم يلاعبه
وصاح بجاه الملك صيحة آمر ... أنا الحب فاعرف قدر ما أنت طالبه
فولى فراراً لم يعقب ولم تفد ... دعائم عرش ركنه وجوانبه
فوالله لو لا الله ثبت ركنه ... (لزلزل من ذاك السرير جوانبه)
وقال ولم يستثن في قوله أنا ... أء التاج فاستغنى عن التاج صاحبه
وودعه لا آسفا لفراقه ... ولا سامعا ماذا تقول أقاربه
وراح بتاج الحب فوق جبينه ... يقلده التاريخ والدهر واهبه
غدا ملكا للحب لم يأت مثله ... على الدهر انسان ولا من يقاربه
تنزه عن عيب فلم يك مثلما ... به سيم أنطونيو فشاعت معائبه
ولا كليوبترا في الشقاء بحبها ... سقاها الردى حياته وعقاربه
ولا مثل قيس لافداء لحبه ... سوى خيمة حدباء فيها مآربه
وأصبح في بتّ القرار قراره ... يمثل كيف العزم تمضي مضاربه
ترفع حتى ما يقال لفعاله ... (كفى المرء نبلا أن تعد معائبه)

وهكذا فقد ارتقى الشاعر بمكانة الحب في أسلوبه القصصي الجميل الذي بعث في أعطافه التشخيص الرائع والحوار البديع واحيا في قصيدته ميت الاحداث كما بدت فيها حصيلة التراث الادبي الذي أحسن الشاعر تضمينه فأتى بالبديع الرائق من المعاني وبعد فلا مناص قبل اتمام حديثي عن غزل الشاعر من أن أجعل مسك ختام هذا الغرض البارز من أغراض شعره

هذه المقطوعة التي عبر بها عن غايته الفنية من الحب ؛ إن الحب عنده مصدر تعذيب محبب إلى نفسه الشاعرة إنه باعث إلهام إنه حب عذري الى أبعد حدود هذه اللفظة إنه يكتفي من محبه بأن يصيره معلقا بخيط رجاء يرجوه عدم قطعه إنه يطلب منه ان يمسح بيده الحانية على كبده الحرى ان اشتدت عليها وطأة الحب ليذوق الحب في شتى حالات أهله حلوا في أوقات الوصال والشفاء من حريق الهجران وليذوق الحب ممزوجا صفو وصاله بمرارة الشقاء النابع من توجس القطيعة والشاعر على كلا الحالين هو الفنان العازف على أوتار الحب الشجية المحركة لوجدان البشرية إسعادا وإشقاء يرقق الوجدان ويعطف القلوب على جرحى سهامه بما يرتله من آيات الفن العلوي والنغم الخالد . يقول قطعته بعنوان لذة العذاب :

ابتسم واعبس ودعني بين خوف وحياء
وارض واغضب وابتدع في الهجر أسباب الجفاء
لا تواصلني وأطمعني ، ولا تقطع رجائي
وتداركني بعطف حين يشتد بلائي
لأذوق الحب في لين داء وشفاء
وأذوق الحب ممزو جا بسعد وشقاء
ربما لذ عذاب لنفوس الشعراء

الرثاء في شعر أحمد رفيق

أحمد رفيق رجل مثالي معجب بجميل الصفات ورفيع المزايا وهو رجل لامع في مجتمعه الليبي خاصة والوطن العربي عامة ولذلك فقد كانت لـه بالعلماء الافاضل العاملين صلات صداقة وربما صلات تثقيف وتوجيه لانهم رعوه ناشئا وشجعوا مواهبه الادبية كما أنه قد شارك بعضهم حرفة الادب والجهاد كالشيخ أحمد الشارف ثم هو بعد ذلك يقدر العباقرة الذين أدوا للبشرية خدمات جليلة في مجال الاختراع خصوصا إذا كان اختراعهم بريئا من أخطار الفناء والدمار ولهذا فسوف نلمس أن غرض الرثاء قد تطور لديه تطورا ملحوظا ان لم يكن في الاطار الفني ففي المضمون إذ تدرج من الرثاء التقليدي الذي يقتصر فيه الشاعر على رثاء من تربطه بهم صلات قوية من الاقارب والاصدقاء والنابهين من ابناء الوطن أو الامة العربية إلى ان يشمل رثاء العباقرة ممن أسـدوا للبشرية أيادي بيضـاء بمـا توصلوا اليه من اكتشافات علمية أو قـد يرثي لمجـرد الرثاء لاشـخاص أعجب بفلسفتهم ومنهجهم في السلوك وبذلهم الجهد في تقصي الحقيقة واكتناهها ولو لـم يربطه بهم عرق أو وطن وانما مجرد الاخاء الانساني كرثائه دانو نزيو وقد بعث بها من جيجان الى مجلة ليبيـا المصورة وهي تمتاز بصبغـة فلسفيـة وتساؤل عن حقيقة ما بعد الموت وهو تساؤل طالما حير المفكرين فوقفـوا إزاءه حيارى ثم طووا جراحات الحيرة واللهفة الصادقة على اجتلاء تلك الحقيقة ثم ارتد إليهم طرف تطلعهم كليلا حاسرا وكان طابع الهدوء والتأمل العميق أكبر وضوحا من طابـع الحسرة واللوعة على الفقيد الراحـل .

فهذا هو الشاعر ينعى اليم الشيخ عبد الرحمن البوصيري ويصـادف أن يحدث زلزال يوم وفاته فيجيد الشاعر استغلال هذه المناسبة ويرى أنها

من تكريم الله للفقيد الراحل فهو بعلمه الغزير وعمله المخلص على هدى عمله وبرجاحة عقله جدير أن تكون ساعة وفاته كساعة الرجفة يوم القيامة إذ أن ناعيه لا ينعى شخصا عاديا وانما ينعى للناس العلم والاخلاق والفضل وسمو المنزلة فقد بلغ الغاية في الفقه والعدل في الحكم والذكاء في القضاء كان ابن أنس في العلم وعمر الفاروق عدلا ويحيى بن اكثم ذكاء في القضاء وهو الى كل هذه الخصال الحميدة جم الادب والحياء يعطي في مزح جدا يلهم التقوى وكان على غاية الاخلاص .

ويعجب الشاعر من اسهابه في سرد فضائل البوصيري وكان يكفيه أن يذكر اسمه ليعترف له بغاية الفضل الذي يدركه سائر الناس ولكنه يعلل إسهابه في احصاء فضائله أنه فرد من أمة بكته لفضائله فاستحالت دموعه قريضا هو ذوب حشاشات استحال دمعا فقريضا . ولا شك أن في المعنى طرافة .

ثم يقول الشاعر كان الاجدر أن نبكي أنفسنا لفقده فقد افتقدنا علما وتقوى تعود على الامة العربية ونحن جزء منها بالخير والفضل العميم .

ثم يعزي الشقيقة مصر في الفقيد الراحل بل يعزي مواطنيه ابناء ليبيا المجاهدة إبان وفاته فهو البدر الذي ان اعتراه السرار اختفى عن القطرين معا وهذا معنى جميل يدل على مشاركة وجدانية صادقة في المصاب الجلل .

والشاعر على يقين من أن الله جل وعلا سيكرم مثواه ويرفع منزلته حيث الفردوس مقر الاصفياء الأبرار في الرفيق الأعلى .

ويختم الشاعر مرثيته بمناشدة الرجل الجليل الراحل الذي سمت روحه الى أعلى عليين أن يسأل ربه ــ وهو مستجاب دون ريب لتقواه وصلاح دنياه ــ رحمة بما خلف على ظهر الدنيا من ابناء هذه الامة حتى تفرج كرباتهم ويشملهم الروح والسكينة يقول أحمد رفيق :

(١) نعوه وقالوا أرضنا اليوم زلزلت ... فقلت لهم إن المصائب أشباه

أجب أيها الناعي وبين أموته ... وقد زلزلت أم زلزلت حين وافاه

لك العذر في أن تدعي لوفاته ... من الهول ما أمثاله العرف يأباه

فقد وقعت في ساعة كان وصفها ... مثالا ليوم ترجف الارض جراه

فان قيل من حسن التصادف ربما ... توافق ما لا يقبل العقل دعواه

فما معظم الاحداث إلا تصادفا ... مع البخت أو ما كان في مثل معناه

نعوه وما للنعي شخصا وإنما ... هو العلم والاخلاق والفضل والجاه

عظيم فقدنا فيه للعلم مالكا ... وللحكم فاروق الزمان ويحياه

الى أن يقول :

يحببه في الله عند جليسه ... مكارم أخلاق بها الدين حلاه

وما كنت أدري أن في اللطف هيبة ... وفي المزح جدا يلهم المرء تقواه

أطلت رثائي غير واف كأنني ... أعرف مجهولا أسأت لعلياه

أما كان في ذكر البوصيري كفاية ... تبلغني مما أحاول أقصاه

ولكنني من أمة لفراقه ... بكت فجرى دمعي قريضا فسماه

كما يقول :

شقيقتنا إن المصائب بيننا ... سواء ـ كلانا واحد ـ شهد الله

إذا غاب بدر في سماء تظلنا ... ألسنا سواء كلنا قد فقدناه

عليه سلام الله يوم وفاته ... ويوم يرى الفردوس في البعث مثواه

ألا أيها الشيخ الجليل وقد سرت ... إلى الملأ الاعلى بك الروح أعلاه

سل الله للباقين خلفك رحمة ... تفرج ما هم فيه يرحمك الله

---

(١) الديوان الفترة الثالثة/٨٨ـ٩٠ .

ولقد رثى الشاعر تربه وصديقه الشيخ أحمد الشارف سنة ١٩٥٩ م بقصيدة طويلة أربت على الستين بيتا من البحر الكامل والشاعر فيها وإن أبن الفقيد بما يناسب منزلته الادبية والاجتماعية والدينية فوصفه بالفضائل الخلقية من علم وتقوى وبغزارة في استيعاب التراث تبدت في انتاجه الشعري إلا أن قصيدته راكدة العاطفة ولعل لظرف القصيدة أثرا في ذلك فقد قيلت القصيدة والشاعر في الستين من عمره أو نيف عليها ولات حين عاطفة مشبوبة جامحة والفقيد قد امتد به العمر ففارق الدنيا الى جوار ربه وقد فقد بصره لتقدم سنه وشيخوخته فغدا رهين محبسيه فها هو الشاعر إن أحسن استهلال قصيدته مع شيء من التجوز في نقد المطلع وما ضمنه من قسم يؤكد ما ذهب اليه من رأي في فقد هذا الصديق الكريم فان مبالغته في وصف تذارف العيون للدمع ثم العودة الى التعبير الحقيقي بصيغة الفاعل بدل المفعول نزولا على ضرورة القافية التي استدعاها لقب الراحل الكريم وإذا هو يكاد يكرر بعض أبيات القصيدة بدون إضافة معنى وبلا مبرر كقوله :

(١) رزء يزيد القلب حزنا وقعه ... وتزيد حزن القلب لوعة آسف

وأنا الذي أسفي يؤرث لوعة ... في النفس ليس لضرها من كاشف

والشاعر يظهر أشد حزنه للشارف الذي يكبره سنا وربما قد رعاه ووجهه في انتاجه الشعري وهو في طور تكوين شخصيته الادبية وكان بينهما نوع من التلطف ورفع حجاب التكليف بين الطالب وأستاذه وهذه عاطفة نبيلة من الشاعر إلا أن صياغته الفنية لم تكن بالمستوى الذي حلق في أجوائه الشاعر في غير غرض الرثاء فكأنه يعالج أمراً عصياً قد تأبى عليه وكلفه من أمره عسرا فكثر حشوه وتضمنت أبياته ألفاظا خلت من رواء

---

(١) الديوان الفتران الرابعة والاخيرة ص ٢٨٢ .

اللفظ الشعري ورونقة بل لقد تخطى قانون القافيــة عندما كانت لفظــة عارف تتلوها عوارف ثم تكون قافية البيت الرابع هي عين اللفظة معرفــة أي « العارف » وإذا هو يستعمل بدلا من منصف وهي لا تأتي بمعناها لغة وإذا به يورد هذا الشطر « ولوارد ولناهل ولراشف » مبتدئا بالاكثر فالاقل فما دونه وهو من الحشو غير المفيد فكل من ورد الماء فقد نهل وكل من نهل فقد رشف •

يقــول :

لهفي ويا أسفي لفقــدي سيدا ... قد كــان يرعاني بقلب عــارف
ويحبني كأخ أو ابــن مفعمــا ... باللطف يثقــل كاهلي بعــوارف
ويجلنــي متواضعــا فــأراه في ... خلق الكريم ممازحي وملاطفــي
خلق على عــلم يزينهمــا معــا ... نــور الصلاح على وقار العارف
لهفي ويا لهف البــلاد لفقد من ... قد كــان للمظلوم أعدل ناصف
قد كــان بحــر معارف لمؤمــل ... ولــوارد ولنــاهل ولراشــف
غاض الخضم فأي بحــر زاخر ... بالشعر يزخــر بعــده بلطائف

وعلى ذكر الشعر يستطرد الشاعر ليبرىء الشاعر من هجنة الدعــوة للتجديد التي لم تغن عن أصحابها ولا عن الشعر شيئــا لانها اسفت بــه وضيعت مضمونه وموسيقاه ومع ذلك كان الاجدر بالشاعر ألا يخرج اليها فهو في مقام أسى ولوعة وذهول لا في مقــام عرض فروض ونظــريات في عالــم الشــعر •

وعلى كل فقد اثنى الشاعر على الفقيد بثبات قدمه وعلو كعبــه في القضاء والعمل بما علم من أحكام الشريعة وينتقل الى إبداء رأيه في الحياة وتفاؤله فيها وأخذها على علاتها لان مصير الناس فيها الــى الرحيل عــن

الدنيا وإن امتد بهم العمر فقطعوا رحلة الحياة زحفا كزحف السلاحف .

وإذا الشاعر ينكر مسرات الحياة ويعيد ما سبقه اليه الاقدمون كالطغرائي الذي لام نفسه على عدم الرحيل عن الحياة وانتظار دولة الاوغاد والسفل :

ما كنت أوثر ان يمتد بي زمني ... حتى أرى دولة الاوغاد والسفل
تقدمتني أناس" كان شوطهم ... وراء خطوي إذ أمشي على مهل
هذا جزاء امرىءٍ أقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الاجل

وكأبي العلاء الذي يرى أن الروح سجينة الجسد تتعذب في ملازمته وسعادتها في الانعتاق من إساره ويرى أن الخضوع للئام رجاء نوالهم أو اتقاء شرورهم حبن ومذلة وأن الموات شفاء ناجح من عناء الحياة وأوصابها .

ويختم الشاعر قصيدته بالاشادة بترفيع الشارف عن مادية الحياة ويثني عليه لصبره على ضر فقد البصر وكثرة العبادة والتأمل في محبسيه ويترحم عليه ويرجو الله أن يحله دار المقامة حيث الظليل الوارف من أشجارها والغض الجني من ثمارها .

ومن جيد معانيه في رثاء الشارف قوله :

الشعر مهما جلّ ليس وسيلة ... للفخر يوما عند مثل الشارف
الشعر لا أرضاه حلية عالم ... حبر على سرّ الشريعة واقف
وهو الذي إنقيل منهو (مالك) ... للعلم لا ترضى سواه لواصف
علامة القطرين واحد عصره ... في الجمع بين فضائل وعوارف
ولي القضاء فكان أخلص عامل ... بالشرع والقانون والمتعارف

وكأنه فيما يصيب بحكمه ... عين الصواب برى بعين مكاشف
أحكامه كانت رضى الخصمين في ... حاليه للبادي وللمستأنف
أحكام مجتهد يؤمل أجره ... من ربه لا من حطام وظائف

الى أن يقول :

نأسى لفقد الاصدقاء وفاتنا ... أنّ الحياة مشوبة بمخاوف
لو قلت من مات استراح لقيل لي ... متشائم تهذي برأي خارف،
أنا في الحياة على تغير لونها ... متفائل لا أعتني بسفاسف
راض بما قسم الإله مؤمل ... في الغيب خيرا لا مناص مصادفي

ويقول :

والله ما في العيش ما يأسى له ... متأمل لم يغتر بزخارف،
ماذا يسرك من حياة معذب ... بالعقل في أغلال جسم راسف
الروح في سجن من الجسم الذي ... لم يَعْدُ عن مترهل أو ناحف
والجسم يسعد بالعذاب مشاركا ... للروح فيما مسها من طائف
وبحسب من رزق الحجى قهرا إذا ... عاقبته بالعيش بين زعانف(١)

ويختمها بقوله :

عاش الفقيد مشرفا بفعاله ... مستغنيا بفعاله المتعارف
مترفعا عن زينة الدنيا وعن ... جاه وعن ترف الحياة الزائف
كأبي العلاء تعبدا وتأملا ... في المحبسين قضى حياة العاكف
رحم الإلهُ فقيدنا وأحله ... دار المقامة في ظليل وارف

(١) الزعانف : أوشاب الناس وطغامهم .

أما رثاء الشاعر للمخترع العظيم ماركوني فهو ضرب من التقدير لمباقرة الافذاذ الذين خدموا البشرية ومنحوها السعادة بالتمتع بثمرات اختراعاتهم وما من رابطة صداقة أو جنس أو دين أو وطن توثق من عراها بحيث يصدم الشاعر بنعي الراحل فيتحرق على جمر التجربة العنيفة الصاعقة التي ترهف احساسه فيتدفق القريض زاحرا فياضا لانه ذوب ذوب الفؤاد الطعين وتهتان العيون المسهدة بلوعة الفقد ولهذا فقد كان رثاؤه بالاعجاب أشبه وبوصف ثمرات مخترعة أوثق صلة ومع ذلك فقد كان على هدوء عاطفته حصيفا مجيدا سبك القريض على حظ وافر من الواقعية خصوصا عندما قارن بين فضل اختراع ماركوني الذي أشاع الثقافة ووثق الصلات العلمية بين شعوب العالم وأراحها من عناء الاتصال بالرحلة وأنقذ حائر السفن والمشرف منها على الغرق والفناء دون أن يشوب صفو ثمراته شبح الدمار والإفناء الذي واكب اختراع المتفجرات والقنابل وتحطيم الذرة كما أشاد بآفاق العلم التي فتحها مخترعه رحبة غير ذات حدود فاستحق أن يتمثل الشاعر في تأبينه يقول الشاعر راثيا

« علو في الحياة وفي الممات لحق تلك احدى المعجزات »

يقول أحمد رفيق :

(١) نظيرك نادر في الكائنات (لحق أنت احدى المعجزات)
رسول الفن أنت ظهرت تهدي بآي الكهرباء البينات
نقلت الصوت فهو بغير سلك يحلق في قوى متموجات
وأرسلت الصدى في البرق يسري أمينا حافظا للمرسلات
طوى الآفاق بين فم وأذن فزال بذاك تحريف الرواة
وأصبحت الاذاعة في مكان تعم بسرعة كل الجهات

(١) الديوان الفترة الثالثة/٩١-٩٣ .

فأغنت في الدعـاية عن كثير ... من الصحف العديدة والدعاة
وتلك يد لنشر العلم جـاءت ... بمعجـزة تفـوق المعجـزات
أمركوني رثيتـك لاحترامـي ... وحبـي للعباقـرة الدهـاة
وأنت أجلهـم عنـدي لاني ... رأيتك فوق هاتيك الصفـات
نفعت الناس أجمـع باختراع ... خـلا من كـل أنواع الأذاة
فكم لك من يد كانت شـفاء ... لآلام البريـة في الحيـاة
وكم أشفت على عطب سـفين ... دعتك فكنت أسباب النجـاة
ولم تك مثل من يسعى ليـأتي ... بما يقضي على باقي الحيـاة

الى أن يقول :

فليتك طال عمرك كي ترينـا ... غرائب مـا يـزلن مكتمـات
علوم العصر إن بسقت وأثّت ... فأنت لهـا بمنزلـة النـواة
وصـار الفخر في كل اختراع ... يعود إليك في مـاض وآت
فما لسوى علاك يقال حقـا ... « علو في الحياة وفي الممات »

مما تقدم نلاحظ أن الشاعر أحمد رفيق قد كان ذا استعداد طيب للرثاء له من تجاربه الشخصية ومـن سعة اطلاعه على التراث ومـن عمق تأمله في الحياة والأحياء رصيد جيد يسعفه بالفكرة التي تثري تجربة متلقي فنه وتوسع من نظرته للحياة ولكن هذا الاستعداد يحتاج الى عمق الجرح وأصالة الباعث على الرثاء حتى يحلق الشاعر في أجواء الرثاء الصادق الذي هو ذوب النفس الطعين ونزف الجرح الكليم ووشـيجة أصيلة للرابطـة الانسانية وهي دليل الاصالة في الفن وعنوان خلوده على الدهر كمـا بدا ذلك، في رثائه الشيخ عبد الرحمن البوصيري ومع ذلك فان عدد مراثيه التي

تضمنها ديوانه لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا قليلا وهي قليلة إذا قيست بوطنياته أو غزلياته أو وصف الطبيعة في شعره ومن الملاحظ أننا لم نقف على رثائه لوالده في الديوان وحتى في كتاب « رفيق في الميزان » لمؤلفه عبد ربه الغناي الذي حلل رثاء الشاعر على ضوء ثلاث قصائد من مراثيه هي في البوصيري والفساطوي وماركوني ولعل مرجع ذلك الى روح الشاعر الهائمة بحب الجمال ممثلا في الطبيعة والمرأة والاخلاق الرفيعة والى معاناته الخاصة وخروجه من وطنه تحت ضغط المستعمر اكثر من مرة فكان انشغاله بتفكيره في الوطن والحنين إليه أثناء اغترابه أو هيامه بجماله والتفرغ لقضيته ورفع شأنه بعد العودة إليه مما صرفه عن غيرهما من بعض أغراض الشعر الاخرى كالرثاء .

وحتى مرثيته في جبرائيل دانونزيو التي بعث بها من تركيا الى مجلة ليبيا المصورة عام ١٩٣٨ عندما بلغته وفاة شاعر ايطاليا دانونزيو لاتعدو أن تكون ضربا من المناجاة لروح الشاعر التي صارت محررة من اسار الجسد الذي يقيدها الى الارض ويحجبها عن معانقة الحقيقة التي طالما تطلعت اليها وتسامت لادراكها فهي الآن أقدر منها في حياتها على تجلية عدة قضايا شغلت عقول الافذاذ من الشعراء والمفكرين في الوصول اليها وهي حقيقة الجزاء على الاعمال الدنيوية ومقابلة افذاذ الشعراء كأبي الطيب وأبي العلاء وداتني بل وماركوني والاستفسار إن كانوا قد غيروا بعض الآراء التي اتخذوها قاعدة سلوكية لكل منهم سار عليها حتى فارق عالم الناس الدنيوي كما يسألها أن تخبر شوقي شاعر مصر غير منازع والزهاوي شاعر العراق كذلك ان شعراء العربية من بعدهم لما يجسعوا على إعطاء امارة الشعر لشاعر فرد بعدهم .

إن القصيدة على جمال الفكرة التي يعالجها الشاعر بل على جمال فكرة النقد للشعراء في عصره لا تدل على عمق تجربة وليس فيها من تشريح

العواطف الانسانية شيء يذكر كما أنها خلت من الابتكار فهو مسبوق إليها بل قد تطرق لها بايجاز في رثائه أحمد الشارف .

يقول أحمد رفيق :

(١) رفرفي في عالم الارواح أصبحت طليقة
في خيال الشعر كم حومت تبغين الحقيقة
كنت في سجن من الجسم الترابي أسيرة
تستشفين حجاب الغيب من نور البصيرة
كان ذاك الجسم يخفي نزوة الروح الكبيرة
فانجلى الآن حجاب الشك عن شمس الحقيقة
فامرحي في عالم الارواح أصبحت طليقة
حلقي ما شئت ما أفسح أجواز السماء
بين مثوى شهداء الحب بين الحكماء
بين أرواح فحول الشعر بين العظماء
حيث لا حقد ولا غل ولا ثم فراق
رفرفي في ملكوت الله أصبحت طليقة
بلغي عنا إذا لا قيت شوقي والزهاوي
أننا للآن لم نخلفهما « غير دعاوي »
يدعيها شعراء مالهم في الدهر راوي
تدعي مصر وسوريا فتغتاظ العراق
كدراويش الزوايا فقدوا شيخ الطريقة

أرأينا كيف كان الشاعر بعيدا عن الوقوع تحت هول التجربة العاطفية التي تذهله عن الحجاج والخصام والنقد بله التهكم والسخرية بأناس يفترض فيهم التجرد من الدنيا للعبادة وأن يلهيهم ولو إلى حين فقد رجل كريم أولوه ثقتهم ونصبوه شيخ طريقة في السلوك ونفل العبادة

---

(١) الديوان الفترة الثالثة/١٢٠-١٢٤

يصبرهم الشاعر في صراع على رئاسة الدعوة كما تصارع زعانف الشعراء على ذيوع الصيت وحب الزعامة الادبية .

ثم يودع الشاعر روح نقيده واصفا أنها على حظ من الرفعة ويدعو لها بالمغفرة وحسن الجوار عند خالقهـا متناسيا أنها مسـيحية أدركت الاسلام فلم تعتنقه وأنها من قوم عتوا وبغوا في اعتدائهم على وطنه وأن اغترابه هو جريرة من جرائرهم وإذا هو يجمجم برغبة في الاستفسـار عن أمور خطيرة إن أفصح عنها رماه الناس بالالحاد لانهم أعداء ما جهلوا ولا ندري عم يريد الشاعر أن يستفسر وقد استفسر عن كل ما حير الفلاسفـة والمفكرين من قبله وهو طلب معرفة ماهية الموت الذي بـه تفـارق الروح الجسد ثم ما حال الميت في قبره أفي نعيم هو أم في شقاء إذ يقول :

ليت شعري ! كيف كان الموت؟هل في الموت راحة
هل كما قالوا برجم الغيب أم تلك وقاحـة
مـن لنا بالعلـم يجليه يقين وصـراحـة
حبذا لو كان في الامكان تبيـان الحقيقـة
كنت أولى من يجليهـا وقد صرت طليقـة
في أمـان الله يـا أيتهـا الـروح الكبيـرة
في أمـان الله في الغفـران في أحسن جيـرة
أتمنـى لـو أنـاجيك بأفكـار خطـيرة
غـير أن النـاس يرمـون بالحـاد وكفـر
كـل حر الفكـر إن الناس أعـداء الحقيقة

الوصف في شعر أحمد رفيق

أحمد رفيق شاعر مولع بالجمال يتبعه أنى وجد ويهيم به على شتى ألوانه ينشده في الطبيعة الارضية والسماوية في كلياته وجزئياته يصوره في الطبيعة الساكنة والمتحركة في سكون الليل وفي ضوء القمر وفي الرئم يرعى تحت أشعته الفضية ينشده في جمال الطبيعة العملاقة ممثلة ذرا الجبل الاخضر الاشم وفي خضم البحر الابيض المتوسط بأمواجه التي تعانق رمال الشاطىء الحالمة مما يلي الشاعر وتعانق قبة السماء اللا متناهية من الطرف القصي ينشده في حدائق درنة الفيح بعرائشها حيث تتدلى عناقيد الاعناب كثريات بلورية صافية وفي شلالها حيث الامواج المتدفقة وحيث ينحل الضوء في أشعة الشمس الى ألوان قوس السحاب كما يصور هذا الجمال في جزئيات الطبيعة كزهرة الورد أو زهرة البنفسج ولا يضيق الشاعر حتى بالجانب غير المشرق منها فهو يصور الصيف بما فيه من أسباب المضايقة للناس تصويرا فيه طرافة الى ما في روح الشاعر من ميل للسخرية التي تفتر لطرافتها شدة لذعها الشفاه وهو لا ينسى أن يصور مخترعات العصر التي اسدت للانسان خدمات جليلة وذللت له العقبات اذ وصف الراديو تارة كما وصف سماعته تارة أخرى وعلى العموم فقد كان للوصف نصيب كبير من شعر أحمد رفيق تجلى فيه حسن التأمل ودقة الملاحظة كما بدا من خلاله مقدار حب الشاعر للطبيعة وما يجده من روح في قضاء أوقات في أحضانها وإن اقتصر في كثير من أوصافه على تصوير ظاهري صادق أضفى عليه من احساسه بالجمال المتبدي لعين الناظر المتوسم دون أن ترتقي عاطفة الشاعر باحساسه بالجمال الى درجة التقديس والامتزاج التام بالطبيعة حتى يصبح الشاعر

أحد عناصرها الدائرة في فلكها كمـا هو الحال عند كبار شـعراء الطبيعة الغربيين أو العرب المهجريين مثل ايليا أبي ماضي أو أبناء الاقطار الشقيقة كأبي القاسم الشابي فيما وصف به الطبيعة كأغنيـة الرعـاة مثلا :

زار أحمد رفيق مدينة درنة ولدرنة طبيعة جغرافية خاصة أسـبغت عليها من جمال الطبيعة في سخاء وبدون حدود فهي واقعة في حضن البحر المتوسط وفي دال مروحية لاحد الاودية الكبيرة التي تتدفق فيها المياه من ذرا الجبل الاخضر الى البحر المتوسط فهي أشبه بواحة خصبة تكتنفهـا الجبال فتحميها من رياح الصحراء الهوج اللافحة وتخلي بينها وبين نسائم البحر العليلة كما أنها تمتاز بمياهها المتدفقة التي تنساب رقراقة تسـقي بساتين الموز والنخيل فتأتي باطيب الثمرات وهي متدرجة في الارتفاع حيث تمتزج خضرة رؤوس النخيل وأشجار الموز بزرقة البحر وظلال الجبال في عين الوافد إليها من عقبتها الشرقية أو الغربية وبعد كل هذا وفوقه فلدرنة تاريخها الاسلامي العطر بجهاد الصحابة الاجلاء الذين أودعوا جبانة فيهـا عرفت باسمهم ولهذا فقد حوت المدينة عناصر الجمال المادي والمعنوي الذي انتشى به الشاعر فصوره تصويرا بارعا فيه واقعية وحب وهيام وإكبـار وتقديس فطالت قصيدته وحسن سبكها في جزالة ألفاظ وروعة تصوير وقد ظهر أثر ثقافة الشاعر الاسلامية فيما أحسن تضمينه أبياتها من آيات قرآنية كما تبدت حسية التشبيه كما وتجلت حيوية الحركة في الوصف وقـوة التشخيص إذ يصور حركة البحر مدا وجزرا مثل قوله :

منظر البحر من علو يثير الشـ ـعر في النفس والغرام الدفينا
ضمها البحر من شمال فكانت كاعبا ضمهـا المشوق حنينـا
يعطف المـوج كالمقبل للسـا حل في سرعـة ويرتد حينـا

فها هو الشاعر مأخوذ بجمال درنة مقدس للخالق الذي أسبغ عليها

أفانين الجمال معمم هذا الجمال على كل ما تقع عليه عين الناظر من انحائها فيثب الى ذهنه أن مثل هذا الجمال في رقي مستواه وعموم شموله لا يكون إلا جمالا أخرويا ولا غرابة فالطيبات كما قال الله للطيبين وهذا حسن تعليل جميل ولفتة بارعة من الشاعر في تفصيل القول في وصف عناصر الجمال على عادته في حسية الوصف وقوة التشخيص واسباغ العواطف الانسانية على جزيئات الطبيعة كالفل والنسرين وغناء الطيور ويرخي الشاعر العنان لذكريات تاريخنا العربي المجيد ويقارن بين حالنا في تلك العصور الخوالي وما ألْنا إليه من ضعف وتخلف وفرقة ويفيق من سبحةَ ذكرياته فاذا الرفاق عنه لا هون وإذا هم يلومونه على ذهوله وشروده فيمحضهم النصح بالسير قدما لان الحياة للسباقين في مضمار الرقي ولا يلبث الشاعر أن يعود لنصح أهل المدينة والحفاظ على جمالها وخيراتها ويطلب منهم تعويذ جمالها يقول أحمد رفيق [1] :

قلت لما رأيت درنة مـا هـ ـذا تباركت أحسن الخالقينا
إن هذا فضل مـن الله يؤتيـ ـه لمن يرتضي من الشاكرينا
هذه درنة التـي كل ما فيـ ـها سرور لاعين الناظرينا
في حماها رأيت دار كـرام وكناسـا وجنـة وعرينـا
أصدق القول إن أردت لها وصـ ـفا وظني أني من الصادقينا
مثل الجنـة التي وعـد اللـ ـه ثوابـا عبـاده المتقينـا
تحت جناتها تفجرت الانهـا ر تجـري فقلت إن الـذين
أي صوب يممت صادفت ظلا ومروجـا خضرا وماء معينـا
يعبق الورد في نسائمها وهـ ـي رخاء يزاحـم الياسـمينا
وإذا ما تنهـد الفل في الليـ ـل أغارت أنفاسـه النسرينا
ذكرتنـي الطيور وهـي تغني « قد قنعنا بحبه ورضينـا »

(١) الديوان الفترة الثالثة/٤٢ـ٤٥ .

الى أن يقول :

وعلونـا على يفـاع فلاحت ... باسـقات النخيل تهتز لينـا
خضرة الموز والنخيل تليهـا ... زرقة البحـر فالجبال يمينـا
منظر البحر من علو يثير الشعـ ... ـر في النفس والغرام الدفينا
ضمها البحر من شمال فكانت ... كاعبا ضمهـا المشوق حنينـا
يعطف المـوج كالمقبل للسـا ... حل في سـرعة ويرتد حينـا
وتجلت لنا بدائع صنع اللـ ... ـه تدعو لربهـا المؤمنينـا

وينتقل الشاعر لوصف جبانة صحابة رسول الله الفاتحين وما تثيره من ذكريات العزة ومـا تبعثه في النفس من آلام عندما يقـارن بين صدق بلائهم وضعف ما آل اليه الاحفاد ويحث على العمل المثمر الذي يعيـد الينا أمجادهم :

زرت جبانة الصحابة فاستحـ ... ـضرت ذكرى أسلافنا الاولينا
وتمثلتهم وقـد جاوزوا مصـ ... ـر الى أرض برقة زاحفينـا
شيعوا الشمس للغروب الى فا ... س وراحوا للهنـد مستقبلينا
وتلفت للرفـاق فألفيـ ... ـت رفاقي عن حالتي غافلينـا
سألوني وقد رأوا ما دهى عقـ ... ـلي فكان الجواب مني أنينا
قلت سيروا إن الحيـاة لسير ... كتب النجح فيـه للسابقينـا
سامحوني يا أهل درنة ما كـا ... ن لسـاني لمـا رأيت مبينـا
فاشكروا ربكم لكم بلدة طيـ ... ـبة" واسعدوا بهـا آمنينا
عوذوها ، بقل أعوذ برب النا ... س من شـر أعين الحاسدينـا

أما وصف شلال درنة فقد تألق الشاعر فيه وأجاد فيه إذ تمكن ببراعة الاديب وحسن تناوله وشفافية روحه أن يبعث الحركة والحياة وعنفوان الحيوية الصاخبة المتدفقة ممثلة في تدفق تيار الشلال من شاهق حبته الطبيعة بالخضرة والنماء والجلال كما استطاع تزيين الوصف بما سكبه عليه من جمال الخضرة وبياض الفضة وصفاء البلور كما أمتع الاذن بالاصغاء لتدفق المياه من الشاهق ولا يلبث هذا الصوت أن تخف حدته فيتحول الى الخرير الذي يشبه هذا الضرب المعين من الغناء وهو الزجل الذي يؤدى في إيقاع جماعي متناسق وإذا هو يمعن في الاصغاء وارهاف الحس فيقع على صورة طريفة للمياه الجارية المتعرجة التي يصل بها حصاها صليل الحلي بل هو أقرب الى وسوسة الحلي الحالمة تصدر عن قنوات من فضة جارية تعب الجنائن من ذوبها رحيق الحياة وإذا الشاعر يحلق بخياله الخلاق فيأتي باكثر من استعارة رشيقة رائقة عندما يصور القنوات بصورة الأفاعي المنسابة في ثنايا الروض ولكنها أفاع من نوع فريد ينفع ولا يضر ويسعد بألسنة تمج بالعذب السلسبيل الفرات لا السم الزعاف كما يصورها بصور الخرد الجميلات تجر اذيال زينتها على الروض وتنشرها على أرضه بما تمنحها من خضرة ونماء وأزهار كما يطرف عندما يصف احاطة عرائش العنب بالسواقي إحاطة خلخال الفضة بساق الخريدة الحسناء . يقول :

(١) إذا زرت درنة لا تنس أن ... تزور على الفور شلالها
فلن تبصر الحسن إلا إذا ... رأيت المياه وسيالها
مياه تدفق من شاهق ... كسته الطبيعة إجلالها
وغنت بصوت الخرير الرتيب ... ترتل للدهر أزجالها
تسبح لله شكرا على ... جمال به زان سربالها
وجالت بألسنة السلسبيل ... تجر على الروض أذيالها

(١) الديوان الفترة الرابعة/٢٢٧-٢٢٨

ويقول :

ترقرق سائل بلورها يجوس الغياض وأدغالها

ويقول :

كسلسلة من لجين مذاب تعب الجنائن سلسالها

عروش أدارت على كل ساق من الفضة المحض خلخالها

وأما وصف الشاعر لرأس الهلال فله سمات الوصف السابقة لدرنة والشلال فيه مزج وصف الجمال بما يشبه نزعة صوفية نابعة من شفافية روح الشاعر وتقديس خالق الجمال الذي ينتشي به ويصوره وتصويره ما يعتريه من خشوع وهو يقلب الطرف في عناصر الطبيعة التي خلبته وإن كانت عناصر الجمال المتعددة في رأس الهلال قد مكنت الشاعر من التفنن في تصويرها فتارة يصورها التصوير الفوتوغرافي الامين يصفها وقد صعد فيها الطرف فتبدو ذرا الشواهق وكأنها متصلة بالسحاب ويبصرها من الذرا فتبدو الاودية كالصلال المتقلبة المتعطفة وهو يقلب الطرف من عل والى الامام فيبدو له رأس الهلال من فرجة منبسطة بين شاهقتين حيث الخليج الذي اتخذ اسمه من شبهه الطبيعي لقرن الهلال يبدو منحنيا عند بداية الشهري القمري حيث يسمو خيال الشاعر إذ يصور الارض بصورة المحبة فتحت ذراعيها ابتهاجا بفرحة اللقاء ويمعن الشاعر في الاحاطة بما يصف فيصف الروابي الخضراء والاشجار النامية متهدلة الاغصان كما يصف الظلال .

حتى إذا ما أخذ في وصف الشلال وصفه وصفا يمتزج فيه الخيال بالواقع وجمله بضروب من الجمال وكرمه بأفانين من التكريم إذ يحث الشاعر الوافد للشلال على أن ينظر إليه بعين تعشق الجمال وتقدره حتى يقف على أسرار جماله التي تحتجب عن بلداء الحس ولا بد له من زيارته في وقت صفاء الجو وإشراق الشمس رأد الضحى حتى يشاهده في وقت يشاكله روعة وجمالا ليتم بذلك الانتشاء بجماله .

والشاعر يقرر أن جمال الطبيعة أجمع قد أفرغ في الشلال بل يسبغ عليه من سحر هاروت وماروت ويعقد مقارنه بينه وبين الكوثر من حيث عذوبته وبركته بل هو يصور خضرة ضخور الشلال وبللها بالماء بصورة نضرة الحياة ورفاهية العيش ويصور محققا تدفق مياه الشلال في مجريين بينهما حاجز صخري في شيء من التكريم والاعزاز عندما يشبههما بموقي العينين بينهما عرنين أشم أبي للضيم ويصف حركة الطير الدائبة على هذا الشريان الحيوي تحوم عليه سربا إثر سرب يحلق سرب المرتوي منه ليفسح المجال الآخر يهبط ليروي ظمأه وينقع غلته ويستقصي الشاعر جزئيات الصورة عندما يصور اصوات انحشرات الصغيرة المنطلقة في لحن موسيقي من ألحان الطبيعة مع الاصيل .

ويطرف الشاعر عندما يصور في ابداع ألوان الطيف الشمسي الذي يتولد من انعكاس أشعة الشمس الغاربة على الرذاذ المتصاعد من سقوط مياه الشلال المتدفقة من ذرا منبعه منحدرة الى مجراه نحو البحر ذلك المنظر الخلاب الذي يأخذ بالالباب وترتد عنه الابصار كليلة حسيرة لتطلق العنان لخيال الرائي لان يسبح في عالم يزخر ويموج في جمال لا حدود له .

فمما قاله الشاعر في وصف رأس الهلال هذه الابيات :

(١) حباك الله يا رأس الهلال ... يدا جعلتك عينا للجمال
مناظر للطبيعة قد تجلت ... بآثار المصور ذي الجلال
تحس بروعة وخشوع قلب ... إذا قلبت طرفك في الجبال
تخال وأنت في الوادي ذراها ... بمنقطع السحاب على اتصال
وإن صعدت في الهضبات لاحت ... تعاريج الثنايا كالصلال
تدور بجالتي خضر الروابي ... من الشجر المهدل والظلال

(١) الديوان الفترة الرابعة/٦٩-٧٢

الى قوله :

ويظهـر بعد ذلك من علـو ... جمال البحر من بين الجبـال
فتبصر منه عن بعد خليجـا ... هو الموصوف شكلا بالهـلال
كأن الارض قد فتحت لضم ... ذراعيهـا سـرورا بالوصـال
هنالك عن يمينك في انحدار ... ترى الشـلال مندفق العزالي
وأما منظر الشـلال فانظـر ... إليه بعـين عشـاق الجمـال
إذا وافيته والجـو صـاف ... وقـد متع النهار الى الزوال
وحف من اليمين شعاع شمس ... وقد قرضته من جهة الشمال
رأيت السحر أجمع في مكان ... فريد في الوجـود بلا مثـال
فسبح للبديع هنـاك واترك ... عنـان شعور روحك للخيال
تذكر في الجنان الحوض وانظر ... إلى صاف من العذب الزلال

الى أن يقول :

يجود بكوثرين قد استقامـا ... وجـاءا يجريان من الاعـالي
وبينهمـا كعرنين أشـم ... تساوى في ارتفاع واعتـدال
بدا للعـين كالمـوقين سـالا ... بدمـع للسـرور أو الدلال
وحام الطير سربا بعد سـرب ... يحلـق سابـق ويسف تالي
وصاح (الزيز) مطردا ازيزا ... يجاوبه الصدى من كل جـال
فغض الطرف مستمعا للحـن ... ترتله الطبيعـة لليالـي

ومن وصف قوس قزح قوله :

وأبدع ما تشاهد من جمـال ... رذاذ المـاء يلمع في انهمـال
إذا انعكس الشعاع عليه أبدى ... من الالـوان اشـعاع اللآلي

ترى لون البنفسج في اصفرار يخالط أزرقا في برتقالي
ورف الاخضر الزرعي يزهو بجانب حمرة ذات اشتعال
يظل العقل في وله ويسري الى الابصار تأثير الكلال

ولجليانة لدى الشاعر اعتبار خاص تملأ نفسه بشحنات شعورية زاخرة مضطرمة متباينة الاحاسيس منها احساس بجمال الشمس الغاربة مؤذنة بانتصار سلطان الظلام كقائد منهزم ينسحب في هدوء تاركا آثار الجراح على أرض معركة يوم حافل بالصراع تبدت في حمرة الشفق واحساس برقة الجو وصفاء السماء المشاكل لزرقة البحر الوديع حيث تتوالى أمواجه في معانقتها لرمال الشاطىء وطبع قبلات الحب على شفاه الرمال الحالمة في غير انقطاع وشفاء لأوام الحب العنيف بتأثير نسائم الأصيل العليلة التي تذكي فيه شوقه المتواصل لعناق الشواطىء الذهبية الناعسة والشاعر فضلا عن التدبيج الذي يشيعه في وصفه الرائق لجليانة ممثلا فيما يتخذه لهذه الألوان من عناصر الطبيعة ممثلة في زرقة البحر والسماء الصافية أو حمرة الشمس القانية في الغروب ولون الرمال الارضية الذهبية الى تحليل عناصر الطيف الناتج عن الاشعة المرسلة من ذكاء الغاربة وراء السحاب المتلي من عليائه نيعانق الارض فتتدرج الالوان وتتداخل حمرة في صفرة زرقة يتقدمها بياض السحب الدانية والتي تزيد من شدة بياضها مجموعة ألوان الطيف من خلفها •

لا يكتفي الشاعر بهذا التدبيج بل يخلع على الطبيعة من العواطف الانسانية ما يبعث الحياة في أعطافها فاذا الموج يولي لثم ثغور الرمال دون إرواء لعاطفة الحب المتأججة التي أذكتها الناسمات فيه وإذا لون ذكاء الغاربة يشبه حمرة الجلنار كما يشبه احمرار خجل البكر الخفرة الذي يضرج خدها الناعم المترف الجميل •

ويمزج الشاعر بين جمال الطبيعة وجمال المرأة الذي يزينه ويزيده روعة وتأثيرا في النفوس وتبدو قدرة الشاعر على بعث الحركة في الوصف عندما يصور تدفق الامواج لهذا الجمال البشري التي تمتطي أمواج البحر الحالمة ويشب خياله وقد تبدى له جمال الغيد من فوق الامواج ممثلا في الخصور والنهود والنحور للمقارنة بين صورة الطبيعة الكونية والبشرية وبين صورة الجنة التي وعد الله عباده المتقين وما فيها من حور وولدان وأنهار جارية .

ولكن نفس الشاعر التي لا تستقر على حال لا يرى هذا الجمال الاخاذ إلا زائلا فهو أشبه بشجرة وارفة في طريق الحياة الشاقة المضنية والانسان هو الحائز الذي ضل دليله « وهو العقل » الطريق في غيهب الليل وظلمته الحالكة وما الانسان إلا مجهد نفسه وسينقضي عمره دون تحقيق مبتغاه .

أوليس كل هذا الجمال الآسر يوشك أن يبتلعه ظلام الليل فلا يبدو منه إلا مقدار ما تبدو النجوم البعيدة لمحا وسط غيهب الليل واستار ظلمته وإذا بالشاعر يفيق من ذهول على حقيقة مروعة هي أن العيش مهما امتد بالانسان العمر وتراخى أجله ليس إلا حلما طويلا وأن العاقل الاريب يجب ألا يخدع بالأماني الباطلة .

ولعل للشاعر عذره في نظرته غير المتفائلة لهذا الجمال الفتان الذي أتقن تصويره فقد قيل هذا الوصف في سنة ١٩٣٦ م وما يزال الوطن يئن تحت وطأة المستعمر الغاشم لما يتحرر حتى تتغير نظرة أبنائه للمستقبل ولو أن القصيدة أو الموشحة بعبارة أدق قيلت بعد نيل الاستقلال لربما كانت على حظ أوفر من التفاؤل الذي يحبب الحياة للاحياء ويزيدهم بها تعليقا ومن أجل اسعادها جدا وتفاؤلا . فمما قاله الشاعر :

قف بجليانة إبان الاصيل وانظر الشمس قبيل المغرب

وانظر البحـر له لون السـماء حين رق الجو صفوا راق مـاء
بتـوالي المـوج فيـه كلمـا صفقت جانبـه ريح عليل
راح يحكـي راقصـا من طرب

وعلـى السـاحل رنت نغمـات وقعتهـا بسـمات النسـمات
وتـرى الموج يوالي اللثمـات دائم التقبيل لم يشـف الغليـل
مـن ثغور بسـمت عن ذهب

لضياء الشمس حـين الشـفق عكس ألـوان حيـال الأفـق
أحمـر في أصفـر في أزرق جمعت في صفحة الجـو الصقيل
خلف وشي من بيـاض الهيدب

ولقـرص الشمس مالت تتوارى جـذوة تشعل فوق المـاء نارا
تركت لونـا يحاكـي الجلنـارا أوحيـاء البكر في خد أسـيل
ألهبتـه قبلـة فـي لعب

يالـه من منظر يسبي الحلـوم رائع ينفي عن القلب الهمـوم
لو رأيت الغيد في البحر تعـوم لرأت عينـاك من كـل جميـل
شارداً في السـرب أو في الربرب

يسـتخف الحلـم منهن سـفور لخصور ونهـود ونحـور
ها هنـا الجنة ولـدان وحـور خضن في الكوثر أو في السلسبيل
طـافيات فوقـه كالحبب

الى أن يقول :

عادة الدنيا عبوس وابتسام ما لحال سر أو ساء دوام
تقضي أعمارنا دون المرام وبنا الشوق لورد مستحيل

من سراب لامع في سبسب

فاذا وصف شاعرنا الغزال تحت اشعة القمر الفضية الحالمة في سكون الليل الشامل عدل عن الوصف الحسي للغزال كما اعتاد الشعراء إذ يصفون حور عينيه ورشاقة منظره وتلاعة جيده الى وصف أحاسيسه ورهافة سمعه وشدة حذره من العوائل والعوادي أن تغوله فتنعكس هذه الاحاسيس لنفس قلقة مفزعة على ما يأتيه الغزال من حركات عفوية لا ارادية استجابة لمعطيات حواسه فينص جيده الطويل المرتفع هنا وهناك مستطلعا حقيقة ما يتراءى لعينيه أو استجابة لسمعه كما ينشط في حركته لا يستقر في مكان حذرا ونشاطاً ويتعطف في مشيه لا يستقيم على قصد لانه يحس بخطر يتربص به دون أن يحقق مكمن ذلك الخطر حتى إذا مال البدر عن السمت ليؤذن بالاختفاء وراء الشواهق نظر اليه الغزال في ارتياب وذعر ويتساءل الشاعر عن ذلك الذعر الذي لا مبرر له في رأيه ؛ أفي طلعة البدر ما يريب أم هو شعور الغزال بقرب اختفاء جبال مؤنس هو مصدر القلق وعلى كل فلا بد للمخلوقات من التسليم لمصائرها ومن الذهول عن القدر المجهول لتسعد بالحاضر وتسعد بصفوه وتتزود بطاقات تمكنها من متابعة رحلة الحياة على متاعبها وآلامها ولهذا لم يلبث ذلك الرئم المفزع أن سادته السكينة وأفرخ روعه فبدا رائعا يتدفق وجهه النضر جمالا وتوردا ونضرة تشعر بفيض من الجذل وإن كان حيوانا بهيما لا يعبر عما يحس بلفظ أو ابتسامة ؛ يقول أحمد رفيق :

(١) يرتع في الليل راقه السحر ... فبات يرعاه فوقه القمر
يؤنسه ضوءه فيفزعه ... من ظله في مسيره الحذر
يتلع بالجيد ها هنا وهنا ... يأرن في خفة وينأطر
حتى إذا البدر مال قابله ... ينظر في ريبة فينذعر
أراعه أنه أسف الى ... أن كان خلف الجبال يستتر
تهلل الحسن في ملامحه ... ورف بالحب وجهه النضر
كأنه وهو غير مبتسم ... يكاد منه السرور ينفجر

وليس غريبا على شاعر مولع بحب الجمال يتبعه حيث يوجد أن يعشق الورود والرياحين وفيها من معالي الجمال ما لا حصر له فيها الحبيب وطيب نشره ونقاء عرضه وفيها نضرة النعيم وصفو الحياة وحمرة الخجل وسورة الانتقام وجمال الخلق الدال على جمال الخلق وتحيات المحبين مما لا ريب فيه أن الورد هو أمير الزهور الذي فيه من سطوة الجبروت حدة الشوك ومن رقة المحبين نضرة الاوراق وأن للزنابق مكانتها في عالم الزهر والفضائل ؛ ليس غريبا والامر ما ذكرت أن يهيم شاعرنا بالورود والزنبق والبنفسج وغيرها من الزهور ويصفها وصفا فيه الحب والهيام والتكريم والحيوية والتدبيج والتشخيص وأن يبدو في وصفه ما لمسناه لديه في الوصف عامة من حسية واضحة منطلقا مع روحه الطروب أقصى انطلاق في بحر القريض حيث يبني القصيدة من مجزوء الرمل وإن كان يجدد في الاطار تجديدا واسعا حيث يجعل الصدر من تفعيلتين والعجز من تفعيلة واحدة مع حرصه على الاحتفاظ بالموسيقى العذبة التي تزيد من رونق الشعر وروائه فيجعل الوصف على نظام المزدوج من الشعر ذى القافيتين الداخلية

---

(١) الديوان الفترة ٣/١٤٠ .

في نهاية الصدر والقافية المألوفة في نهاية العجز الذي بناه على تفعيلة واحدة فكان مشطور الرمل عنده عجزا وصدرا بقافيتين متغايرتين يتجددان بتجدد أزواج الاشطار مما منح الوصف خفة وحيوية ترتفعان به الى حد الغناء والترقيص . هذا الى هذا الحشد الزاخر من ألفاظ الحب والهيام والتكريم بدا في تصغير التحبب ما أحيلى والالفاظ العذبة الرشيقة مثل ثغور الورد ، الانفاس الريا ، الطيب وذكرى الحبيب ، الرحيق ، العقيق عقد لؤلؤيا وحلي العروس فاذا هو منتش بريا الورد وروائه سعيد ببسماته للشمس المشرقة ذاهل عن واقعه بعض حين ثم لا يلبث أن يفيق من عالم أحلامه الورديـة ليقرر الحقيقة المؤلمة وهي قصر أوقات السرور التي تنغص عليه صفو تلك المسرات فيذكرها ذكر المحزون الشجي المروع فيما يحب .

يقول : [1] ياثغـور الورد هيـا خبريني
أرسلـي الانفـاس ريـا وانعشيني
واملئـي الكـون بطيب يا ندية
وابعثـي ذكـرى حبيب لي هدية
لنسـيم الصـبح يوحـي بغرامي
تسعدي روحـي فروحـي في هيام
مـا احيلـى نفحـات كالرحيق
واحيلـى بسـمات من عقيق
قـد كسـاك الطل عقـدا لؤلؤيـا
وحبـاك الفجـر نقـدا ذهبيـا

(١) الديوان الفترة ٣/٣٨-٣٩ .

الى أن يقول : ضحك الورد فجلى عن همومي
ومضى ما دام إلا بعض يوم
قلت ما اسرعه جاء وراحا
ليته زاد مساء وصباحا
هكذا عقبى المسرات يصير
هكذا عمر المسرات قصير

أما وصفه للورد مرة أخرى ففيه الحب والتكريم والتدبيج إلا أن فيه حسية مفرطة صرح بالشهوة النارية واكتواء الوجنة بالقبلة على عدم جرس كلمة اكتواء والتصريح بتهييج العواطف الجنسية والشهوة العاتية والبطش الدموي الذي تتدفق له الدماء القانية وعلى العموم فقد افسدت حسيته المفرطة جمال الوصف الذي كان فيه لا يعدو الوصف الظاهري للوردة الحمراء القانية فاعتسف التفكير والذوق جريا وراء تحقيق التشبيه ولم يسم الى جمال الوصف ورقة العواطف وعفوية الصور في الوصف السابق، فهو يقول من مجزوء الرجز :

(١) ياوردة الصباح يا ندية
يا بهجة الارواح يا حيية
يا خجلا في وجنة الصبية
يا شفة شهوتها نارية
يا وجنة بقبلة مكوية
يذهب بي حسنك يا شذية

---

(١) الديوان الفترة الرابعة والاخيرة/٣٠٥-٣٠٦ .

وجسك النابض حيويـة

إلى معـان حلوة خفيـة

كأنهـا العواطف الجنسية

لو صورت ألوانهـا مرئية

فكان منها الشهوة العتيـة

وكان منها الغضبةالوحشية

لون الحياء حمرة ورديـة

والغيظ أقوى حمرة دميـة

وللسـرور صفـة جليـة

أما وصفه للزنبق ففيه الحب والهيام والاجـلال وفيه يمتزج الواقع بالخيال وروعة التشخيص إذ يسبغ عليها من أخلاق الخرد الحسان الطهر ونقاء العرض وجمال الخلق والخلق وهيف القد الرشيق وتصوير عواطف الشاعر نحوها فهو لا يستحيي في حبها بل وضمها وعناقها والانتشاء بنشرها الطيب ووداعتها وعدم تخييبها مطلبه من شم وضم وعناق وإذا هو يشخص رشاقة قوامها ونضرتها بأنها تتصرف تصرف الخريـدة المتوددة التي تقف لتحيته بابتسام وإشراقة محيا وإذا الشاعر منتش بنفحها وجمال منظرهـا فيعود الى تشبيهها بشبهات علوية يشبهها بالنور عند فلق الصباح الجميل بعد أن قارنها بزهر النجوم وكان قد أسبغ عليها من التشبيهات المعنوية إذ يصف نصاعة بياضها بالطهر والنور والعرض النقي فاذا هو يقول من مجزوء الرجـز :

(1) حبيتـــي منزلهـــا فـي كـل روض مونـــق
أحبهـــا مـــن كـــل رو حـي حـــب واف مشفـق
لأستحـي فـي حبهـــا فعـــل العفيف المتقـــي
بيضـاء كالطهـر وكـالنو ر وكالعـــرض النقـــي
طيبـــة الـــروح تفـــو ح بالعبـــير العبـــق
إذا أردت شمّهـــا أو ضمهـــا لا تتقـــي
ولا تـــرد كـــف لا مسٍ ولا مستعـــق
حسـن جمـــال خلقهـــا دليـل حسـن الخُلُـــق
ذات قـــوام أهيـــف مهفهـــف مستنشـــق
قامت علـى ســاق تحي ـي بابتســام مشـرق

الى أن يقـول :

تفتـر عن مثـل نجـو م فـي فضـاء أزرق
أشبه بالنـرجس والفلّ (م) ونـــور الفلـــق
تلـك التـي همـت بهـا تلـك زهـور الـزنبق

فاذا طرق الشاعر وصف بعض مخترعات العصر وقليلا ما أثبت من ذلك فيما وصلنا من شعره في هذا اللون من ألوان الوصف بدت لنا سمته الغالبة عليه وهي سمة الجنوح للخيال القريب والإطراف والجدة في الفكرة وهو لا يحتفل بالوصف المادي أو الفوتوغرافي الذي يبرز فيه الحجم والهيئة واللون والزخرفة وانما يصف عن طريق الصور الادبية البارعة عمل الأداة وأثرها في نفسه بل وما توحي به إليه .

يصف سماعة الراديو فيكتفي في خلق الجو البارع لاستقطاب احساس سامعه بعبارة موجزة تسلم الى أقصى مراده مثل قوله : صنعت

---

(١) الديوان الفترة ٤/٢٤٣-٢٤٤

باتقان عجيب فالاتقان إذ توصف به الصناعة رائع وزائد عن الغرض في التعبير عن التقدير الذي أحسه الشاعر إزاء تلك الاداة التي يصف وإردافه لذاك الوصف بوصف آخر « عجيب » فقد أكد به ما يشعر به من عاطفة الاعجاب والتقدير والاطراء بل ودعوة متلقيه لأن يشاركه تقديره وسعادته وهو يستع نفسه بالنظر لتلك السماعة وأذنه بالاصغاء لعذب ألحانها التي تعيد اليه ترديدها بل وعقله إذ يفكر في عبقرية مخترعها وما أسداه للبشرية من نفع وامتاع غير أنه لا يلبث وعلى غاية من الاسراع أن يحلق بأجنحة الخيال في أجواء الوصف فاذا بها توحي اليه بمعنى غريب معنى فعل الهوى في العاشق المحروم بكل ما في الحرمان من معان كإصابة سهام الحب أعشار قلب مقتل وتسديد السهام المصمية من قرب ويتعجب من قدرة مخترعهاعلى التنبه لشيء كان الشاعر يظن إدراكه قصرا على أصحاب الافئدة المرهفة من الشعراء والادباء وليس ذلك السر الخفي سوى حرق الغرام في فؤاده التي تمثلها حرارة الكهرباء السارية في السماعة وهذه الزفرات الحرى والهتافات التي لا تنقطع تدعو الحبيب الهاجر لمعاودة الوصال « يا حبيبي » تصدر من السماعة مرددة تأوهات المغني المتقن لفن الغناء يقول الشاعر :

(١)للراديو سماعة صنعت باتقان عجيب
مثلت صنعتها وقد دلت على معنى غريب
فعل الهوى في عاشق من جفوة الطبي الربيب
فكأنها قلب المحـ ـب أصابه لحظ الحبيب
أو أن سهما للفراق رمى فأصمى من قريب

---

(١) الديوان الفترة الثالثة/٢٢ .

الى أن يقـول :

يا ويحهـم فطنـوا لشـيء ليـس إلا للبيـــب
مـا صوروا إلا فـــؤا دي بات في حر اللهيـب
فالكهـربا نـــيران وجـ ـــهي والتغنـي مـن نحيبي
يشكـو جـــراح الحب في قـول المغنـي يا حبيبي

اخوانيات احمد رفيـق

ذكرت في أثناء البحث أن الشاعر ذو مثل عليا في وطنيته وصداقاته مما صير الكثير من انتاجه زاخـرا بالحنين للاصدقاء والتعلق بذكـريات عزيزة وأويقات أنس قضاها بصحبتهم مما أذكى في فؤاده الزفرات علـــى مفارقتهم كقوله من قصيدة بعث بهـا للشيخ موسى بن أحمـد البرعصي مـن جيحـان :

(١) بعد السلام وتقديم احتراماتي أهديك يا سيدي موسى تحياتي
واشتكي حر أشواقي اليك فقد أذكاه في خاطري بعد المسافـات
فارقتكـم وفؤادي ما يفارقكم قيدتمـوه بأسـباب وثيقـات

وفيها يقول ذاكرا حنينه الى أوقات سعادته بإلمامه بأصدقائه من أسرة آل عامر بالبركة ومصوراً ما يكنه اليهم مـن ود وحب واحترام متبادل لذات الصداقة المنزهة من شوائب الغرض :

الى بني عامر أهل السماح لهـم بي انشراح وبشرى في زياراتـي
إني لأمـدح أحبـابي لحبهـم إذ ما مدحت امرأ من أجل حاجاتي
أقضي سويعات أنس في مرابعهم معززا يا لدهري مـن سويعات
معاهد لبـلادي كنـت آلفهـا خلفـت وآسفي فيهـا لباناتي

---

(١) الديوان الفترة الثالثة / ١ ـ ٣

ولذا فقد استطاع الشاعر أن يخلد هذه العاطفة الاخوية الصادقة المشبوبة بأكثر من معنى رائع في قصائد حنينه من جيجان الى وطنه فكان فيها نغمات صادقة تذكر متلقي فنه بروح الشاعر الفارس أبي فراس الحمداني في رومياته التي كانت فتحا لهذا الموضوع الجديد في الشعر العربي حيث كانت فيها صوفية محببة للنفوس تبدت عنها روح رقيقة شفافة تقدر الوفاء على البعد ويؤلمها أن يحول الاصدقاء مع الرياح المتحولة فيدمي ذلك فؤاد صاحبها فيكون ذوب ذمائه شعرا علويا مقدسا ومشعلا خالدا يرسم للاجيال معنى الوفاء يقول أحمد رفيق من قصيدته « حنين غريب لاوطانه » [1] .

يا من على البعد نهواه ويهوانا ... لشد ما شفنا شوق فأضنانا
ذكرى عهود الهوى باتت تساورنا ... يا من يبلغ للاحباب شكوانا
إنا بحكم الهوى صرنا ولا عجب ... نزيد ذكرا لمن يزداد نسيانا
ما أنصفتنا الليالي في نوى تركت ... جسما هنا وهناك القلب ولهانا
قلب أضر به حب الوفاء فما ... أخل بالعهد في حب ولا خانا
واف على البعد لا النسيان خامره ... ولا استطاع على الايام سلوانا
واها لذكرى حبيب كلما سنحت ... كأنما قدحت في الجأش نيرانا

الى أن يقول :

قد طوحتنا الليالي عن مواطننا ... يا ويح كل غريب قدره هانا
لا عز إلا لشاو في مواطنه ... إن الغريب مهان أينما كانا
(ما أقدر الله أن يدنى على شحط ... سكان برقة من سكان جيحانا
(عين الزمان أصابتنا فلا نظرت ... وعذبت بصنوف الهجر ألوانا)

---

(١) الديوان الفترة الثالثة / ٢٧ ـ ٢٨ .

ومن منطلق الصداقة للافذاذ الفضلاء الذين خدموا أوطانهم فأخلصوا وأسدوا للانسانية أيادي بيضاء فقد رثى الشاعر صادقا في رثائه نخبة من خيرة مواطنيه في ليبيا ووطنه العربي الكبير ، رثى الشيخ أحمد الشارف وابن بلدته الفساطوي والشيخ الاباصيري ورثى الزهاوي بل تعدى حدود الوطن الى الانسانية الرحيبة التي لا تعترف بفواصل من جنس أو وطن فرثى ماركوني وجبرائيل دانونزيو ونراه يشيد بموقف ملك انجلترا الذي أنصف الحب وانتصر اليه متخليا عن التاج والصولجان ضاربا المثل الاعلى في التضحية في سبيل هذه الرابطة الانسانية المقدسة الداعية للمساواة بين الافراد حكاما أم سوقة رجالا أم نساء .

إلا أن الاخوانيات ليست نوحا كلها أو زفرات تذيب قلب الحديد فحسب بل لها أوقات صفاء وأنس ومداعبة ومساجلة تنم عن روح مشرقة بحب الجمال في العشرة واقتناص صفو الحياة والمساجلة في ضروب شتى من العمل والقول ولقد كان لروح رفيق المشرقة ولحيويته الفياضة المتدفقة ولنكتته البارعة وسرعة بديهته واقباله على الحياة أثر أي أثر في أن يكون له النصيب الاوفى والقدح المعلى من هذا اللون المشرق من الاخوانيات .

فها هو يرسل لآل عامر قصيدة تنوب عنه مشاركتهم أفراحهم بزواج أحد أفراد الاسرة يرسلها من جيجان لعدم تمكنه من الحضور فيها الابتهاج الذي غمر قلب الشاعر بالسرور وسرى عنه في مهجره وفيه الثناء على آل عامر بما عرفوا به من التقى والكرم والعلم والغزير والصلاح ويشيد بودادهم الذي سما لدرجة الاهل والقرابة ويشكر لهم لفتتهم الكريمة في دعواه لحضور فرحتهم ويعتذر بلباقة عندما يعبر عن منتهى سروره على البعد وأنه إن غاب جسده لعدم تمكنه من اجتياز الآماد وعوائق السياسة فان روحه بلا ريب حاضرة بينهم سعيدة بسعادتهم ويرجو لهم مخلصا أن يجنوا ثمار هذا الزواج رجالا شجعانا ذوي إباء وأمجاد تتلألأ بها جباههم

شرفا وكرامة فمن أبيات قصيدته تلك قوله :

(١)فرح وفوز بالمنى ونجاح يا آل عامر دامت الافراح
دام السرور لكم ودام لبيتكم مجد يردد ذكره المداح
مجد دعائمه التقى وعماده كرم وعلم واسع وصلاح
رفع ابن عامر سمكه وأتمه خلف نجيب للعلا طماح
يا آل عامر ليس لي في مدحكم فضل فأنتم أهلى النصاح
أنتم أحبائي الذين صفا لكم قلبي فصار بذكركم يرتاح
إن لم يكن جسمي لديكم حاضرا فبحبها تتقارب الارواح
جاءت رسالتكم لدعوة صاحب لم ينسه كرم لكم وسماح

الى أن يقول :

يا آل عامر بالبنين وبالرفا عقد تتمّ لكم به الأفراح
تأتي نتائجه بكل غضنفر شهم الفؤاد جبينه وضاح
كمحمد ومحمد وكأصلها تأتي الفروع وتعظم الارواح

ولقد كان الشاعر عذب الفكاهة يصب شآبيبها على أصدقائه رافعا حجاب الرسميات بينه وبينهم مقتنصا الفرصة إن سنحت فها هو يمر بدرنة الشهيرة بموزها ولكن الشاعر ممنوع عن تناوله والإصابة منة لقرحة بمعدته فلا يفوت الشاعر هذه الفرصة ليصور حالته تصويرا يداعب فيه أصدقاءه مشيرا باصبع الاتهام لبخلهم فيقول :

(٢)أليس عجيبا أن أمر بدرنة وأمكث فيها لا أذوق بها موزا

---

(١) الديوان الفترة الثالثة / ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٢) الفترة الرابعة/٣٥

فلو كان معدوما لسليت خاطري بأن ليس في وسعي لمنعدم حوزا
ولكنني أبصرت في كل موضع عراجينه مطلوقة تشبه الجوزا
ألا إنه كالنجم بعدا مناله محال ألا فوزا لمن ناله فوزا

ويبدو أن روح الدعابة قد انقلبت الى ضرب من الملاحاة والدفاع عن الرأي ورغبة في إظهار البراعة والتغلب على المنافس فاستحالت لضرب من المزاح الخشن الذي لا تحمد عقباه لأنها على الأقل تمس القلوب بشواظ من الشحناء تئن لها المودة فانتهت الى ما يشبه الجفاء والخصومة الادبية وطلب لها حكم محايد قاض عدل هو الشيخ أحمد الشارف الذي عمل على إصلاح ذات البين بين الاخوة ابناء الوطن الواحد .

ومتتبع هذه المداعبة الادبية بين الشاعر وخصمه الحصادي يلمس بعض الحقائق منها :

أ ـ أن الشاعر أحمد رفيق ربما عبر عن تجربة ذاتية حرمته موز درنة الطيب الجنى ولا يحتم ما ذهب اليه أن يكون أهل درنة بخلاء بل هو يشعر لإرهاف حسه أن مرضه يحول بينه وبين الموز فكان الموز في الثريا مع أنه على الثرى وهو قريب المنال إن شراء وإن إهداء .

ب ـ ان الشيخ محمد عبد الحميد الحصادي قد تهجم على شاعر الوطن على قرب عودته من مهجره واتهمه بالجلافة وعدم التحلي بآداب الفكاهة وكلفه بقبول عذره كأنه الموكل بالدفاع عن أهل درنة فان لم يفعل فليفعل ما يريد من اظهار عدم الرضا واختار لذلك مثلا عاميا يدلل على عجز الشاعر وتحقيره كأنه يقول له ما معناه اشرب البحر أو انطح الصخر .

جـ ـ ولهذا فقد تألم الشاعر أحمد رفيق من دعابة الحصادي ورده غير المتوقع لانه على الاقل يعتبر نفسه والحصادي صديقين تجمعهما حرفة

الادب ولانه كان يرى أن للصداقة حقوقها التي يجب ألا تهان في سبيل غلب زائف على صفحة جريدة يومية ولهذا فقد قال له إن في استطاعته أن يحمل أهل درنة (روزا) اذا شاءوا ذلك ووكلوه في الدفاع عنهم وعليه عندئذ أن يأخذ وكالة رسمية في أن يكون لسانهم المدافع عنهم وحينئذ سيدرك من يكسب القضية واتهمه بمحاولة افساد المودة بينه وبين محبيه من أهل درنة وانه بتدخله كمثل من أراد تجميل العين فأعماها وأنه قد تدخل فيما لا يعنيه تدخلا مؤلما بغيضا ومع ذلك لم تفارقه روح دعابته فهو ما زال يرى الحصادي كريما ويستبعد أن يكون تدخله بينه وبين أحبته بخلا بالموز الذي سيصيب منه الشاعر ليقوى على حمل درنة (روزا)

د ــ بدت في هذه المساجلة روح الشاعر مرحة طروبا ورشيقة صافية الوداد مولعة بالفكاهة والطرفة الادبية مكبرة للاصدقاء سعيدة بصداقتهم تجلهم عن أن يوصفوا بالخفة إلا خفة الظل والروح وبعد أن يتغزل الشاعر بالموز مضفياً عليه كل ضروب التجميل لونا عسجديا وصفاء الجسم هو الهلال بعينه وعطر رائحة يتعجب من عدم قدرة طيب أنفاسه الذكية يجرد منه محبوبة منعمة عذبة الريق تنفح بالشذا ــ التي لم تقو على اضفاء الطيب على أرواح أهل درنة وإلا لرقوا لحاله وأنالوه .

ويستغرب الشاعر مداعبا كيف يحرمون ما أحل الله من هذه الفاكهة ، ألا غالوا في مهرها مغالاة الصهر الكاره .

ويتعجب من أن يطول أمد هذه الملاحاة في ملاطفة امتدت حتى غدت (صنوره العرفي) لا يراد منها إلا الجدل المثير للخصام لارضاء نزوات من مرضى شهره شفاؤهم في اطراء الناس لهم ووصفهم إياهم بالقدرة على صوغ القريض ولهذا فقد أعلن من جهته أنه قد أنهى هذه المساجلة لانه يرى المفاكهة والاطراف كالملح إن أكثر منه أو قلل أفسد المودة فان عادوا فلن

يجيبهم إلا بقوله سلاما حتى لا تتردى الصلات إلى أسوأ مما صارت إليه فكان لسان حاله يقول « سلام لا نبتغي الجاهلين بحقوق الصداقة وإدارك لذة الادب » .

هـ ـ كثرت في مقطوعات الشاعر وقصائده في هذا المعنى من معاني الشعر الاخوي الالفاظ الدارجة وبعضها أجنبي معرب كما كثرت فيها الأمثال الشعبية أيضا وهذا يدل على عفوية في الأداء تطلق فيها النفس على سجيتها في صياغة ما يعن لها من المعاني والصور الادبية كما أن فيها اقترابا من قاموس عامة الشعب لتسير بين الناس وتتداولها الافواه إذ موضوعها قد تحول الى ضرب من المساجلة لنيل قصب السبق وانتزاع إعجاب الجماهير .

يقول أحمد رفيق بعنوان « أشيلهم » :

(١) ومعتذر عن آل درنة قال لي
إذا أنت لم تقنع فشل أهلها (روزا) (٢)
إذا وافقوا عما تقول وأنهم
أنابوك عنهم حاميا دونهم حوزا
سأفعل ما شاءوا إذا قر رأيهم
على حملي (الاثقال) أو أكلي الموزا

---

(١) الديوان الفترة الرابعة ص ٣٧ .

(٢) الروزا : لعبة يتمدد فيها أحد اللاعبين على الارض على ظهره ويداه ملتصقتان على جنبيه ويحاول خصمه أن يرفعه (كناية عن عجز المخاطب) .

فخذ أولا للذود عنهم وكالة
وننظر فيما بعد من يكسب(الكوزا) [1]

أردت لها كحلا فأعميت عينها
وأحدثت بيني والمحبين لي (بوزا) [2]

دخولك بين الظفر واللحم إن يكن
لبخل بموز لن تنال به فوزا

سأطعمه بالرغم منك لانه
يقوى على ما قيل من يلعب الروزا

كما يقول أحمد رفيق أيضا :

[3] يا موز حالت دونك الأثقال — أنت العزيز وأهلك البخال
أهواك يا حلو النسيم وأشتهي — وصلا فيمنع وصلك العذال
يا لابسا من عسجد لونا إذا — جردت من قشر فأنت هلال
يا ناعما ما بال أهلك بعضهم — خشن القلوب كأنها أجبال
يا طيب الانفاس لو طيبت من — أرواحهم رفوا لنا وأنالوا
جعلوك فاكهة محرمة على — من نالها إثم وأنت حلال
لو أنهم طلبوا لاجلك قيمة — ما كان يعوزنا لذلك مال
يا ليتهم كانوا (نسيبا كارها) — في شرطهم لما حموك وصالوا
شرطوا لوصلك روزة لم يعرفوا — معنى الكلام فأغربوا وأحالوا
أيظنهم عندي ثقالا إنني — والله أخجل أن يقال ثقال
إني أراهم مثل خفة روحهم — فوق القلوب كأنهم آمال

---

(١) كوزا لفظ ايطالي بمعنى قضية .
(٢) بوزا : زعل كلمة دارجة كأنها مشتقة من مبوز بمعنى عابس أوحزين
(٣) الديوان الفترة الرابعة ٤٠ ـ ٤٢ .

وأجلهم عـن أن يكونوا روزة ... لـو شلتهـا لأقلهـا مثقـال
لو زرتهـم ووضعتهم في كفـة ... ونفخت في أخرى القريض لشالوا
كانت ملاطفة فأضحت عنـدهم ... صنـورة العـرفي لهـا أذيـال
صارت (كطحن الرز) لا يبغي به ... إلا الخصـام وأن يثار جـدال
في الناس مرضى شهرة وشفاؤهم ... في أن يقول الناس عنهم قـالوا
هـذا بـلاغ لا تروموا بعـده ... منـي مجـاراة لمـا سيقـال
إن كان مزحـا فليكن كالملح لا ... إكثـاره عـدل ولا الإقـلال
سـأقول إن عدتم سـلاما إنني ... أخشى عليكم أن تسوء الحـال

روح الشاعر المرحة الطروب لا تفارقه عندما تسنح فرصة للمفاكهة والمداعبة وإظهار عضلات القريض وما يجب أن يراعي من أجله صاحبه من المهابة واتقاء غضبة رئبال القريض مخلبه ونابه فهاهو ذا يشتكي لأحد أصدقائه فقد دراهمه إثر مجلس صداقة تساقى فيه الأصحاب رحيق الصداقة والشراب والفكاهة وأصابوا فيه من لذائذ الطعام ثم انفض مجلسهم وقد آذنت الغزالة أو ذكاء بغروب ؛ جلس الشاعر بعد ذلك على قهوة وأراد أن ينقد صاحبها ثمن شرابه فلم يجد النقود فأخذ بما عهد فيه من روح الدعابة يفكر فتذكر أنه ما صرفها ولا أضاعها وأنه ما فقد صوابه في كل ما أتى من أمر حتى ثبت له باليقين أنها قد سرقت منه وفي تلك البراكة المشؤومة وأنه لا يتهم أحدا من الرفاق فكلهم سليل مجد وعفاف وأنحى باللوم على المضيف الذي أفاض في تقديم الطعام والشراب وقصر في حراسة ثياب الجلساء ونقودهم واتهم غير منصف البواب الذي جرده مما أضفاه على الصحب من إنسانية وأمانة ويستمر مداعبة المضيف في مزاح وإشراق عاطفة عندما يغرمه جزاء إهماله باعداد وليمة للاصدقاء أما هو فقد احتسب ما ضاع منه عند الله تعالى ؛ يقول الشاعر وروحه القصصية بادية في شكواه :

(١) يا سيدي موسى إليك شكاتي ... مما دهى جيبي من الاصحاب
كنا مع الاصحاب في براكة ... مشؤومة الاعتاب والابواب
رحنا لكي نحيي النفوس ونلتقي ... فيها ونلعب جائز الالعاب
ولقد تمتعنا بكل لذيذة ... من مأكل وفواكهٍ وشراب
وفكاهة ونوادر ولطائف ... ومباحث راقت ذوي الألباب
حتى توارت بالحجاب وخلفت ... أستار ليل حالك الجلباب

الى أن يقول :

لما تفرقنا جلست بقهوة ... كي يستريح الجسم من أتعاب
فتشت جيبي ما وجدت دراهمي ... فشككت في نفسي وعدت حسابي
حققت فيما قد صرفت وما بقي ... فعلمت أني ما فقدت صوابي
واستيقنت نفسي بأن دراهمي ... سرقت وفي براكة الصلابي
أقسمت ما وقعت ولا ضيعتها ... ولقد حلفت ولست بالكذاب
أنا لست متهماً سليمان ولا ... فتحي ولا موسى فهم أترابي
حاشا هموا من كل ظن سيىء ... أهل العفاف سلالة الانجاب
لكنني والحق لست بآمن ... ذاك الممدد من وراء الباب
إن حل بالابواب يوما آفة ... لا تشتبه إلا من البواب
هذا حديثي يا كليم بسطته ... والحكم حكمك فاشفني بجواب
وأعلم بأني لا أريد لضائع ... عوضا ولا أرضى بهتك حجاب
لكن يعوضها سليمان بما ... ترضاه لي من جملة الاصحاب
ويكون من أذكى طعام طيب ... ويخصني من بينهم بشراب
هذا وإن هو لم يجب بمروءة ... حدثه عن ظفري وحدة نابي

---

(١) الديوان ج ١/٤١ ـ ٤٢

أخبـره أن الليث عنـد غضابه يلقـى المنيـة ليس بالهيـاب
لا يسـتحق الهجـو إلا أننـي أدعـوه فيمـا بعـد بالسلابي
أنا في حماه وقد سلبت دراهمي فهـو الكفيل بهـا مع النهـاب

ويختم الشاعر قصيدته بتحية الحكم في هذه القضية التي أجاد سرد قصتها وأبدع في تقديم البراهين الدامغة على صدق دعواه فيها وكان فيهـا صدق عاطفة الصداقة وشفافية روح للشاعر وجزالة ألفاظه وحسن استخدامه لقاعدة تداعي الافكار إذ استغل اسم الحكم فنعته بلقب كليم الله موسـى عليه السلام وهو نبي وبهذا يورط موسى ليبذل قصارى جهـده ليغرم الصلابي بوليمة تسعد الاصحاب كما استغل اسم الصلابي ليضحك منـه ويطرق في نعته فهدده بوصف « السلاب بمعنى المغتصب » .

والقصيدة مثل لتطور الشعر في المعنى فهي تمتاز بالعضويـة القائمة على وحدة الموضوع إذ هي في غرض واحد هو شكوى الشاعر من عبث الاصدقاء الذين داعبوا شاعرهم مداعبة خشنة فسلبوه نقوده رفعا للكلفة وإمعانا في الاضحاك وتوريطا له في طريق عودته بحيث يحرج في أهـون حاجات يومه كدفع ثمن فنجان قهوة كما امتازت القصيدة بثبات عاطفتها الضاحكة الباكية التي أسبغت عليها منذ المطلع حتى ختامها .

ومع هذا فقد احتوت القصيدة على بعض ما يزيدها واقعية وعفوية من بعض ألفاظ يومية دارجة وتعبيرات شعبية مثل قوله « مشؤومة الاعتاب والابواب » من قولهم الحظوظ في « أعتاب وكعاب ونواصي » ، « مـا فقدت صوابي » ما فقدت عقلي أو بالدارج من الالفاظ « ماتخوخمتسن» وقوله الانجاب بدلا من النجباء وقوله عوضي على الله الكريم وهو مـع سلامته لغويا إلا أنه لفظ تداولته الالسنة فغـدا شعبيا جاء به للامتـاع واستثارة البسمات على الشفاه ، أورده مباشرة بعد تعبيره الرصين المؤدي للمعنى وهو « احتسبت مصابي » .

خاتمة البحث

ومسك الختام لبحثي عن الشاعر أحمد رفيق بعد أن اطلعت على ديوان شعره المطبوع في ثلاثة أجزاء كما وقفت على بعض آراء إخوانه المعاصرين له مثل الاخ عبد ربه الغناي الذي قدم للشاعر دراسة نقدية منصفة وهي كتابه « رفيق في الميزان » وبعد أن عشت مع شعره فتـــرة ليست باليسرة أوجز رأيي فيه فيما يلي :

١ ــ كان رحمه الله شاعر الوطنية الصداح الجريء الصادق فقد عاصر فترة حالكة من تاريخ الوطن في العصر الحديث مني فيها الوطن بالاستعمار الايطالي الغاشم فصارعه الشاعر بالكلمة الشريفة المناضلة غير هياب الموت في سبيل أن يبقى مرفوع الرأس حاملا مشاعل الجهاد ولقد ضاق الاستعمار بجرأة الشاعر وعجز عن إغرائه واحتوائه فأجبره على ترك الوطن أكثر من مرة وكان الشاعر يعود للوطن كلما سمحت الظروف بالعودة ليناضل فوق أرض الوطن متعرضا للقتل والسجن وهو لم يدع مظهرا من مظاهر النضال الوطني الذي يذكي نخوة المناضل بالسلاح إلا كان له فيه النصيب الاوفر، فقد ندد بجرائم الاستعمار وقتل جنوده الابرياء من شيوخ ونساء وأطفال وعدم تورع حكامه من التخلص من نجباء الاطفال غيلة وغدرا كما اغتيل غيث الصغير وقد ندد بالعملاء من المواطنين الذين خدعوا باغراءات المستعمر وساروا في ركابه لمطامع مادية كتنديـــده بالقاضي الجانح مع المســـتعمر وكتنديده بصحيفة البريد وكان من مظاهر وطنيته حنينه للوطن والاصدقاء فبه وتصويره لمعاناته الشديدة وشقائه في مطارح الغربة كما دعا للوحدة الوطنية وحسن تربية الفتاة والعناية بتحسين وضع المعلم كما دعـــا لتوثيق

رابطة الوطن باشـقائه من الدول العربية وقد قام بهذه الرسـالة الوطنية السامية خير قيام في قوة واستفاضة وصدق عاطفة وإبداع خيال خلاق كما سبق أن صورت هذا الغرض من أغراض شعره .

٢ ـ كان للغزل حظ وافر من قريضه ولا غرابة في ذلك فالشاعر من عشاق الجمال بكل ما في هذه الكلمة وعلى عموم مدلولها فقد أحب المرأة جسدا وروحا ولعله كانت له تجربة خاصة حرمته ظروف الوطن القاسية من جني ثمارها فقد كان يجمجم بحب صادق عميق وكانت الذكريات ما تزال تعاوده وقد شرح النفس الانسانية تشريحا يدل على صدق معاناة وقد ذكر محبوبته بكل شيء جميل شاهده بل إنه قد أعلن عن نكء جراحاته بمحض صدفة عابرة وضعته أمام محبوبته وجها لوجه بعد انقطاع أمل في اللقـاء امتد زهاء تسعة أعوام ويصور ذلك اللقاء وحديث العيون وتفاهم القلوب في صمت كما يصور عدم احتماله وأنها قد كانت أقوى جلدا وأعظم تماسكا وإذا به يكرمها ويصفها بالعفاف والصون ويسدل على حبها ستارا احتراما للتقاليد وهو كغيره من شعراء العربية المجيدين قـد مزج الحب بالشراب تارة وبالطبيعة تارة أخـرى فأتت تعبيراته فياضة بعاطفة الحب المشـرقة السعيدة كما اتسمت أوصاف الطبيعة لديه بقوة التشخيص التي تسكب الحياة متدفقة في أعطاف الطبيعة وتصيرها عاقلة زاخرة بشتى العواطف من غيرة ووداد وسرور كما أن الشاعر قد أعلى من سلطان الحب وقهره ذاك الذي صير ملكا مطاعا لا تغرب عن أرجاء مملكته الشمس ينصاع عن قناعة وسرور لامره متخليا عن الجاه والصولجان آخذا بيد الحبيب معرضا عن كل ما سواه .

٣ ـ الوطن الحبيب لدى الشاعر مترامي الاطراف أسبغ الله عليه من آيات الجمال ما تعجز عن تصويرها ريشة أبدع الفنانين فيه الجبال الشاهقة التي تناطح السحب تزينها الاشجار الباسقة وتتعرج بينها الاودية المتعرجة

والشلالات المتدفقة بمياهها الكوثرية تردها زراقات الطيور حيث تشدو للطبيعة الحالمة أعذب الالحان أمثال شلال درنة ورأس الهلال بسوسة وجليانة ببنغازي حيث قهوة الشط وحمام جليانة وغيده الحسان بلباس المصيف حيث يبدو الجمال غير محتشم وحيث تلثم الامواج رمال الشاطىء الناعسة وترتد على عجل شأن الشخص المريب ثم هناك الافق حيث تنسج الطبيعة من زرقة الامواج وحمرة الشمس الغاربة صفحة قدسية رائعة .

وقد امتاز الوصف عند رفيق بنوع من الصوفية الحالمة والتقديس عند وصفه مظاهر الطبيعة الكبرى من جبال وشمس ونجوم وبحر وشلالات وبضرب من الحسية المفرطة فيما عدا ذلك وهو في أوصافه يكثر من التدبيج وجمال التلوين والتشخيص وإسباغ الحياة على الجماد مع عناية بالحركة والتنغيم الموسيقي ووصف دقائق الكائنات واصواتها ليعطي وصفه حظا من الواقعية ولا يغفل أن يكون نظمه في الوصف على بحر الرجز الذي يمنح الوصف حركة وحيوية .

٤ ــ ولقد لا حظت أن مراثي الشاعر وإن كانت قليلة نسبيا لشعره الذي استغرق ثلاثة اجزاء من الديوان قد اتسمت بصدق العاطفة وابتكار في اكثر من معنى وأنه قد خطا بمفهوم الرثاء خطوة للامام فلم يقصره على من تربطه بهم صلات قوية من الاقارب والاصدقاء ولم يقصد به تعزية ملك أو أمير وإنما تعدى به أبناء الوطن العربي فرثى بعض عباقرة الفن أو العلم ولقد كان رثاؤه لجبرائيل دانونزيو شاعر ايطاليا ضربا من التأمل الفلسفي والنقد الأدبي الذي وجهه لشعراء الادب العربي في العصر الحديث الذين ما زالوا بعد شوقي والزهاوي يتصارعون على الزعامة الادبية دون أن يقدموا لاوطانهم ما يستحقون عليه الالقاب الادبية التي تمنحها الاوطان لرجالات الادب المجيدين الذين يخدمون أوطانهم والانسانية في إخلاص وصمت .

أما مرثيته لماركـوني فقد كانت أقرب إلى الاعجـاب به والوصف للاختراع ذاته فليست هنـاك عاطفة اللوعة والتفجع التي بدت في رثائـه للشيخ الاباصيري ولقد عزوت هذا الاقلال وركود العاطفة الى نفس رفيق الطروب المتفائلة المقبلة على الحياة التي تنصرف عن أسباب تهييج الاحزان ما وجدت لذلك سبيلا كأنها قد اكتفت بحمل آلام الوطن التي تنوء لهـا أعناق الاشداء من الرجال .

٥ ـ أما ما يسمى بالاخوانيات وهو غرض قديم تطور الى حد بعيد في شعر الشام وفي البيئة الحمدانية على وجه الخصوص فقد كان الشاعر مكثرا فيه كما ذكرت وهو فيه مشرق العاطفة بهيج النفس مقتنص الفرصة السانحة لقول الشعر ولكنه كان يتألم إن لم يدرك مساجلوه سمو مغزاه أو أرادوا الاسفاف أو اصطياد الشهرة على حساب الصداقة والاخلاق عندئذ يتحول الشاعر الى بركان بالحمم يصمي أعداءه بسهـام الهجـاء العنيف الذي لا يسف صاحبه ولا ينال الاعراض ببذيء القول وإن كان يستخدم الالفاظ الشعبية والامثال الدارجة ليصور غايات ونهايات المعاني بل يحسن استخدام التراث في صور بارعة طريفة كما يكثر من استعمال الالفـاظ المعربة أيضـا .

٦ ـ سار في معظم شعره على عمود الشعر العربي مـن حيث التزام الوزن الواحد والقافية الموحدة خصوصا في التعبير عن تجاربـه الاصيلة كالحنين أو الهجاء للمستعمر أو الدعوة لمواصلة الجهاد وتوحيد الوطن أو الرثـاء .

٧ ـ ومع ذلك فقد كان حظه من التجديـد موفورا في المضمون والاطار على حد سواء فقد نهض الشاعر بعبء مناضلة المستعمر بشـعره وعني بتحرير وطنه ودعا لوحدته وكشف عملاء الاعداء الذين يرغبون في تقطيع أوصاله وحث على النهوض به فكان بهذا الشعر السياسي مجددا في

المضمون كما أنه اكثر من الدعوة لتحرير الشعر من قيد القافية بل والبحر ولهذا نظم على نظام المزدوج المتجدد القافية والموشح مع التحرر في عدد الاغصان حتى في الموشح الواحد كما تصرف فاكثر من مشطورات البحور مع التنويع في الايقاع والنغم الموسيقي عند ما يبني الشطر على تفعيلتين بصراع مغاير لقافية التفعيلة الثالث الذي اعتمده عجزا مرفلا لمشطور البحر الذي اتخذه بيتا للقصيدة .

٨ ــ أما لغة الشاعر فعلى حظ كبير من الرصانة والقوة وهو محيط إحاطة جيدة بالتراث فكان لهذا أثره القوي في صوره الادبية كما أنه يكثر أحيانا من تضمين قصائده أبياتا من التراث يقتضيها مقام الغرض الشعري الذي يتناوله .

٩ ــ تأثر الشاعر بأبي الطيب المتنبي والشريف الرضي وأبي فراس في فخرهم وحنين أبي فراس في روملياته كما أعجب بشوقي والزهاوي من شعراء العصر الحديث .

وقد اتسمت قصائد كثيرة له بالوحدة العضوية في الغرض والعاطفة التي تسودها وهذا اتجاه حديث في الشعر كان في دور الازدهار أثناء حياة الشاعر وهو وان كان من تأثير الغرب والشعراء المهجريين المتأثرين به فلم يكن بعيدا عن الشاعر لمسه في انتاج فحول الشعر في عصره كشوقي والزهاوي وحافظ وايليا أبي ماضي وجبران فضلا عن اتصاله بالمترجم من الادب الغربي .

ولهذا كله فقد كان الشاعر احمد رفيق المهدوي شاعر الوطن في فترة عصيبة من تاريخه الذي عاناه الشاعر مواطنا حرا أبيا ينازل أعداء وطنه ويقارعهم حاملا روحه على راحته فاستحق ما لقب به « شاعر الوطن » كما كان رجلا حر الفكر تقدميا دعا الى تحرير العقول والارادة بل وتحرير

المرأة واطلاقها من أسر التقاليد لتسهم في بناء نهضة الوطن فكان نصيرها في وقت كان للتقاليد سطوة قد تفوق سلطة الشريعة الرحيمة التي سادت بين الرجل والمرأة وكرمتها ضروبا من التكريم فأباحت لها السفور الشرعي ومبارحة البيت لتشارك شقيقها الرجل العلم والجهاد والتجارة وضروبا أخرى من السعي الشريف .

كما بدا الشاعر من خلال البحث إنسانا فياضا بالحيوية مقبلا على الحياة يرتشف أفاويق صفوها من امتاع النظر بالجمال المطلق في الانسان والطبيعة والاخلاق ومفاكهة الاصدقاء ويصور بعمق وعفوية وعاطفة مشرقة وبراعة تصوير مما يكون الشاعر له شاعرالوطن الاول باجماع شعراء الوطن المعاصرين له الذين سلموا له بقصب السبق وإمارة البيان في ليبيا في زمنه وإنه في رأيي لجدير بذلك التكريم رحم الله شاعرنا الوطني الانسان الفنان وبالله التوفيق .

مصادر البحث :

(١) دراسة عن الشاعر للدكتور عبد القادر احمد رمضان ، ألقيت على السنة الرابعة بكلية اللغة العربية بالبيضاء .

(٢) ديوان الشاعر المطبوع وهو ثلاثة أجزاء ط/١ مطبعة الرسالة ، المطبعة الاهلية ببنغازي .

(٣) رفيق في الميزان ، عبد ربه الغناي ط/١ منشورات مكتبة الاندلس .

(٤) الثقافة العربية العدد الثاني ، السنة الخامسة .